نهاد أبس

كما لو أنكَ باقٍ

رواية

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

كما لو أنكَ باقٍ

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: مايو / 2021م
- رقم الإيداع: 09241/2021م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-165-5
- المؤلف: نهاد أبس
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

أُنثَى خَافتْ من الحُبِّ

إهدَاء

إلى الأُنثَى التي خافتْ من الحُبِّ

إذا كان حَقيقيًّا سيُبدد كل مخاوفكِ

وسيغمُركِ بالأمان فقط!

احتميتُ بمظلَّة مضادة لرياحِ الحب ومقاومة لأمطار العِشق والهيام، لكنها كانت مثقوبة!

الألم، الحبُّ، الخَوف، يجعلونك حقيقيًّا من جديد.

- جاك كيروك

الحبُّ هو ألا تخاف و أنت في وسط بحر من الخَوف.

- شمس التبريزي

الخوف من الحب خوفٌ من الحياة،
والخوف من الحياة ثلاثة أرباع الموت.

- برتراند راسل

- اكتبي شيئًا من أجل العروسين!

قَالت لي المرأة الأنيقة التي تقفُ عند بوَّابة قاعة الأفراح أمام دفتر مُزخرف وهي تمُدُّ نحو وجهي قلمَ حبر سائل قديم.

أمسكتُ القلم البارد بيدٍ مُرتجفة وأنا أُراقبُ عينيها الضيقتين المائلتين وابتسامتها الهادئة.

أضافتْ بفضول أمام صمتي وشرودي:

- مِن طرف مَن أنتِ؟

تسمَّرتُ في مكاني، حائرة، لا أقوى على الحركة، ولا الكلام، ولا حتى على التَّنفس.

مِن طرف مَن أنا؟

مِن طرف مَن أنا يا نبيل؟

هل أُخبرها أنَّني من طرفك؟ من طرف العريس؟ من عائلته؟ من أقاربه؟ أيحقُّ لي ذلك؟

ألم أكُن من أقرب النَّاس إليكَ في يومٍ من الأيَّام؟

أم أنَّ الأقارب الذين لا تربطنا بهم صلةُ الدَّم ينقطع الحبل الرقيقُ الذي يجمعهم بمجرد أن يبتعدوا عن بعض؟

ألم يكُن الحبل الذي يربط قلبَينا أقوى من رابط الدَّم هذا؟ ألم تُخبرني من قبل أنه سمِيكٌ وأنَّ لا شيء يستطيع أن يُمزِّقه؟

لكنه يتمزَّق الآن..

حتى أقوى عُقد الحبِّ تنحلُّ وترتخي مع مرور الوقت..

أليس كذلك؟

هذا ما تُحاول إثباته لي هذه اللَّيلة!

لكنَّني هنا..

أتعرفُ لماذا؟

لأننِي أردتُ أن أشاهد بعينيَّ دفنك لِي اليوم، أردتُ أن أُراقب كلَّ خطواتك لكي تضعني في تلك الحُفرة السَّوداء الضَّيقة، وأن أحسب كلَّ حركاتك وأنتَ ترمي على وجهِي حفنات التُّراب المبلَّل بغدرك!

***

- سيدتي، هل أنتِ بخير؟

أضافتْ الشَّابة التي نسيتُ وجودها.

قلتُ لها وأنا أتفحصُ الدفتر والورود الحمراء المنثورة حوله ثمَّ خطّ أمِّك المميَّز:

- أنا بخير!

كتبتْ أمُّك بخطِّها الجميل: «أتمنَّى لكَ السَّعادة يا قِطعة من روحي، أتمنى لكَ الصِّحة والتَّوفيق وسعة العمر، اعتنِ جيدًا بهذه الفتَاة النَّاعمة التي تستحقُّك».

ابتسمتُ..

لم تتمنَّ لكَ الحبَّ..

ربَّما لأنها تعرفُ أنَّك لن تُحبَّ أي أنثى بعدي، وربَّما فقط لأنها لا تتحملُ ولا تتمنى أن تُحبَّ امرأةً أخرى سواها..

كانت أمُّك دائمًا أنانيةً في حبِّها لكَ، جشعة في تملكها لاهتمامك ولحنانك، ولم تعرف أنني أحببتُكَ بقدرها، أو على الأقل هذا ما ظننتُه!

لستُ مُتفاجئة أنها تُحاول جلدِي ولعني وتلويث صورتي في عينيكَ حتى فِي كلماتها القَليلة هذه!

«هذه الفتاة النَّاعمة التي تستحقُّك».

أنا لا أستحقُّك يا نبيل، أعرفُ هذا، أؤمن بهذا الآن، وهي مُحقَّة، وصدقني أنا لا ألومها أبدًا!

تمنيتُ لحظتها لو استطعتُ أن أدع تلك الدَّمعة الحارقة تنزلقُ من عينيَّ وتسيلُ على خدِّي، تمنيتُ أن أتنهد بعُمق وأن أَستريح!

***

ماذا سأكتُب لك؟

ماذا يُفترض أن تكتب أنثَى غارقة في الحبِّ والوجع والخيبة لحبيبها الذي يتزوَّج؟

هل يُسمح لها أن تكتب مشاعرها الحقيقية أم أنه أمرٌ مُحرّم وملعون ستُعاقب عليه؟

هل أكذبُ عليك مرة أخرى؟

هل أمارسُ عليك نفَاقِي وكذبي وأتمنَّى لك حياةً سعيدة مع امرأة تسرقُ مني أحلامي هذه اللَّيلة؟

أم أكتبُ لكَ أنني أُحبُّكَ، أنني أشتاقُ إليك وأُريدك ونادمة لأننِي لَم أُحارب من أجلك؟

لَكنني حاربتُ يا نبيل!

حاربتُ من أجلنا بكل ما أوتيتُ من قُوة!

لا فكرة لكَ عن الحروب التي خُضتها منذ أن قابلتُك، لا فكرة لك عن كم مرَّة غرقتُ فيها وأنا أقع في حبِّك، وعن كم مرة حاولتُ أن أهرب ولم أنجُ!

أنتَ لن تعرف أبدًا لماذا حدثَ كلُّ هذا، ولا لماذا أنا هكذا!

لن تعرف سوى ما تراهُ عينيكَ.

أنتَ رجلٌ، سطحيٌّ، واقعيٌّ، عمليٌّ..

أنتَ لا تؤمن سوى بالعلم والبراهين والمعادلات والدلائل..

أنتَ رجلٌ لا يؤمن بأن للقلب صوتًا آخر، بأن للنَّبض معاني أخرى، بأن لارتجافة العين والشّفة لغةً أخرى!

أنتَ لم تسمع سوَى كلماتي التي خرجت من حبالي الصَّوتية، ولم تقرأ كلَّ لُغات جسدي ولم تسمع صرخات قلبي وأنين كِبريائي!

أنتَ صدَّقتَ أنَّني أُريد رحيلك، لكنَّني لا أُصدق حتى الآن أنكَ رحلت!

أتذكَّرُ أوَّل لقَاء لنا..

وكأنَّه البارحة..

أتذكَّرُ صوتك الدَّافئ الذي أخرجني من شرودي:

- مرحبًا!

رفعتُ رأسي ببطء، بهدوء، أخافني كثيرًا صوتكَ وعِطركَ القويّ اللاسع الذي اقتحم حواسي.

- مرحبًا!

تمتمتُ باضطراب وأنا أتفحَّصُ شكلك الأنيق، قميصك الأبيض وابتسامتكَ العذبة.

أضفتَ بخَجل وأنتَ تُشير بيدك نحو طاولة مُقابِلة لي:

- أنا آسف، لكن أصدقائي المجَانين يُعاقبونني لأنني خسرتُ فِي إحدى ألعابنا بالتحدث معكِ، لذلك لا تغضبي مني أرجوك.

تأملتُ أصدقاءك وصديقاتك، لا أتذكر عددهم بالضبط، لكنكم احتجتُم إلى دمج طاولتين من أجل الجلوس مع بعض.

أضفتَ وأنت تُمرر يدك على شعرك القصير:

- طلبوا مني أن أُخبرك...

صمتَّ قليلًا وكأنَّك تُفكر بطريقة مُناسبة لكي تخبرني بما أردته دون أن تزعجني، ثمَّ قلتَ بتردد واضح:

- أنا حقًّا آسف، لكن، ألا تملِّين من الدِّراسة؟

ثمَّ بدأتَ تُبحلقُ ببلاهة فِي كتبي الكثيرة ومحاضراتي المنسوخة وأقلامي المائية بمُختلف الألوان المنثورة هنا وهناك!

***

سقط مني قلمي الذي كنتُ أكتبُ به بعض المفردات التي يستعصي عليَّ تذكرها،

أضفتَ بتوتر:

- أنا حقًّا آسف، لم أقصد..

لكن اعتذاراتك لم تكُن كافية لكي تمنع دموعي من القفز نحو الخَارج.

لكنني لم أبكِ بسببكَ، ولا بسبب أصدقائك الذين كانوا يراقبون ردَّة فعلي لكي يصنعوا منها تسلية لهم، ولا بسبب شكلي الغريب وتلك الكعكة التي أصنعها من شعري وأثبتها بأحد أقلامي وأنا أدرس، ولا برائحة القهوة التي تنبعثُ من كلِّ جزء مني.

بكيتُ لأنني كنتُ مُتعبة، كنتُ مرهقة جدًّا، لم أنم منذُ أيام، ولم يبقَ على الامتحان سوى أسبوع!

- أنا حقًّا آسف، أرجوكِ سامحيني!

أضفتَ وأنت تجلسُ قبالتي وتُمسكُ يدي برفق.

قلتُ لك بصوتٍ باكٍ:

- لا تعتذر، أنا لستُ غاضبة منك.

حاولتُ سحب يدي من بين يدك لكنك كنتَ تُمسكُ بها بإحكام، رفعتُ عيني إليكَ وراقبتُ عينيكَ بلون الزمرد ونظراتك الحزينة المثقلة بندمٍ عميق.

سألتَني وأنت تتبعُ بنظراتك دمعاتي الكثيفة:

- لماذا تبكين إذن؟

- لأننِي مُتعبة.

أجبتُك بتلقائية.

أضفتَ مازحًا:

- هل تدرسين الطب؟

انفلتت مني ضحكة عالية وسط دموعي جعلتني أشعر وكأنني غبية..

هل هذا واضحٌ إلى هذه الدَّرجة؟ هل جبين طالب الطب مطبوع بعلامة تُميِّزه عن غيره من الطُّلاب أم أنها طقوسه الغريبة هي التي تفضحه في كلِّ مكان؟!

ابتسمتَ لضحكتي ثمَّ قلتَ وأنت تُمرر أصابعك الباردة تحت عيني وحول شفتيَّ:

- أنتِ جميلةٌ وأنتِ تضحكِين، لا تبكي مجددًا، وسامحيني!

ثمَّ وقفتَ وابتعدتَ لتجلس على مكانكَ الفارغ قرب تلك الفتَاة الشَّقراء الجميلة.

***

شعرتُ لحظَتها بأوَّل لدغة غيرة، غيرة مُختلفة عن تلك التي كنتُ أشعر بها عندما تضحكُ صديقتي المقربة مع شخص آخر أو عندما تخرج مع صديقة أخرى غيري، غيرة مُختلفة، وكأنَّ شيئًا حادًّا وخز

قلبي حتى قفز من مكَانه، فبدأ يضربُ بقُوة ويبعثُ الدَّم بسُرعة نحو دورتي الدَّموية، وكأنه تعرض للسعة سَامَّة أفقدته صوابه إلى الأبد!

لم أدرس قط ذلك اليوم بعد أن بعثرتَ انتباهي وإيقاع دقَّات هذه العضلة الغَريبة، راقبتُكَ لدقائق، راقبتُ ضحكتك العالية المبهِجة، حركات يديك وأنت تتحدثُ بثقة، بحَّة صوتك المميزة، طريقة مشيتك وجلوسك منتصبًا كأن عصا مربوطة بظهرك، كلها تفاصيل ظلَّت عالقة برأسي لأيَّام..

شيءٌ ما استفزَّني فيك، ربما ملامحك المرسومة بعناية، ربَّما لحيتك الخفيفة التي داعبتها صديقتك أو حبيبتك مرَّتين، غمَّازتاك اللتان تُشبهان برعم الورد، وربما نظراتُك التي تتفحصني بها بين الفينة والأخرى!

غَادرتَ أخيرًا، لكن شيئًا ما منك ظلَّ عالقًا بي منذ ذلك اليوم، ولم يُغادرني قط!

***

هَل حدَّثتُك من قبل عن أوَّل شيءٍ فعلتُه بعد انصرافكم؟

لقد تركتُ كتبي، حقيبتي، حاسوبي وأقلامي الكثيرة على طاولتي وركضتُ نحو دورة المياه ثمَّ وقفتُ أُطالع نفسي في المرآة المستطيلة..

ثم انفجرتُ ضَاحكة بعد عدة ثوانٍ من الشرود!

كنتُ أرتَدِي قميص نومي القطني الذي تتوسَّطه صورة ماعز وأرتدي سروالًا من الجينز قديمًا وواسعًا، كنتُ أجمعُ شعري إلى الأعلى ككعكة مُستديرة لكِنني وأنا أدرسُ ودون أن أشعر أسرقُ منها في كلِّ مرَّة خصلات وأقوم بلفِّها حول إصبعي بتوتر، فأصبح شكل رأسي يشبه الشَّمس التي كُنا نرسمها على زاوية الورقة في طُفولتنا ونضع لها أشعَّة من كلِّ اتجاه!

كنتُ أبدو غريبة الأطوَار، وأنا دائمًا أبدو غريبة الأطوار قبل الامتحان، بسبب التَّوتر وقلَّة النوم والوقت وجرعات القهوة القَاتلة.

ركضتُ بعد ذلك نحو طاولتي التي أحجزها خلال فترة الامتحانات، عانقتُ حاسوبي وتركتُ المقهى المقابل لبيتي ثمَّ دخلتُ على أمِّي التي تُشاهد مسلسلها المفضل وقلتُ لها:

- كيف أبدو؟

داعبتْ رأس ماكو وقالت له:

- يبدو أنَّها فقدتْ عقلها، أليس كذلك؟

أومأ الشَّقي برأسه علامة الإيجاب ثمَّ قال بصوته السَّاخر مؤكدًا كلامها:

- مياو مياو مياو..

أبتسمُ الآن وأنا أُفكِّر في كلمة أكتُبها لك، أبتسمُ وأتساءل كيف أحببتَ فتَاةً في قمَّة بُؤسها وبشاعتها وإهمالها لنفسها وصحَّتها مُقابل الاهتمام بكلِّ كراسات محاضراتها الكثيفة؟!

وكيف لم تمل مني ومن طُقوسِي الغريبة خلال كلِّ هذه السَّنوات؟!

اعترفتَ لِي ذات يوم:

- لم أكُن أعرفُ أن هكذا ستكون حياتي إذا واعدتُ طبيبة المستقبل!

قلتُ لكَ:

- وكيف هي حياتك ما شاء الله؟

قلتَ وأنت تُمرر يدك على شعرك القصير:

- لا شيء مُميَّز، سوى أنها تدرس طوال الوقت حتى عندما نتقابل، وأبقى أنا مكتوف الأيدي لا يحقُّ لي فعل أي شيء سوى النَّظر إليها دون أن أُصدر أصواتًا لكي لا أُزعجها!

قلتُ لك وأنا أضربك بقلمي:

- هل تُريد أن أفشل في امتحاني؟

تمتمتَ بدلال طفل صغير:

- لا، أُريد أن أشبع من عينيكِ، وهكذا ستمُر أيامي دون أن تلتقي عيناي مع عينَيْ حبيبتي!

قلتُ لكَ بغضب:

- لماذا أنتَ معي إذن؟ اذهب إلى فتاة أخرى!

أضفتَ بسخريتك اللطيفة وأنت تضع يدي على قلبك:

- إياكِ أن تقولي هذا الكلام مجددًا، هذا يغضب منك!

كيف حال قلبك إذن هذه اللَّيلة؟ هل سيغضبَ مني لأنَّني من دفعتُك نحو امرأةٍ أخرى أم سيغضبُ منكَ لأنك تُقحمه في قصَّة لم يخترها لكي تنال ثأرك منِّي؟

أنا غَاضبةٌ من نفسي يا حبيبي، غَاضبةٌ إلى أبعد الحدود!

هل يحقُّ لِي أن أُناديك حبيبي أم أنَّنِي فقدتُ هذا الحق حين سقطتَ من يدي وحين نزعتُ خاتمي ووضعته مجددًا بين يديك؟

لكنني أنهيتُ خِطبتي فقط، ولم أنهِ حبِّي لك ولا شيء يستطيع أبدًا إنهاءه!

كتبتُ بعد تردُّد طويل: «أُحبّكَ كثيرًا وسأظلُّ كذلك إلى آخر يومٍ في حياتي، عيون الغزال».

أعدتُ القلم إلى الآنسة التي لم تمل من مراقبتي، ثمَّ وقفتُ أراقبُ قوس الورد على الباب وبعض النُّدل الأنيقين الذين يدخلون ويخرجون بانتظام!

في صباح اليوم الثّاني ولأول مرَّة في حياتي أرخيتُ شعري المجعَّد أثناء في فترة الامتحانات، وكنتُ أعرفُ حق المعرفة أنَّني لن أستطيع أن أدرس به هكذا لأنه كثيفٌ، ولأن الجو حار، ولأننِي أتحسَّسُ بكثرة من أيِّ شيء في هذه الفترة!

وقفتُ أتأملُ شعري الأسود الذي تتخلله خيوطٌ ذهبية في المرآة، أداعبُ خصلاتي التي تُشبه لوالب مُتطايرة وأفكر للحظات في تمليسها لكنَّني أتراجعُ عن ذلك في آخر لحظة وأكتفي بتصفيفه بيدي!

لم يكُن شعري قط أملسَ يُشبه المكانس النَّاعمة، ولم أُحاول من قبل أن أقضي ساعات في حرقه لكي أجعله يُشبه شيئًا لا ينتمي إليه، أنا أحبُّه هكذا طوال الوقت، حتى عندما يقفُ في كلِّ الاتجاهات غير عابئ بجاذبية نيوتن!

ترددتُ كثيرًا قبل أن أرسم خطًّا أسود خفيفًا على جفني العلوي، ثمَّ مررتُ أحمر شفاه بلون طائر الفلامنجو على شفتيَّ وحاولتُ الخروج!

- توقفي!

هتفتْ أمي بصدمة.

قلتُ لها دون أن أستدير نحوها:

- ماذا؟

قالت بسخرية:

– هل ستدرسين اليوم بشعرك وهو مسترسل على رقبتكِ وظهرك؟

– نعم أمي، ما المشكلة؟

قفزت أمامي وتأملتني مطولًا قبل أن تنفجر ضاحكة وتقول:

– مستحضرات تجميل أيضًا ما شاء الله! هل قابلت شابًّا أيتها الشَّقية؟

– أمي!

قالت:

– ماذا؟ ماذا؟ منذ متى تضعين أحمر شفاه في هذا الوقت؟

– أردتُ بعض التَّغيير فقط يا أمي.

تمتمتُ وأنا أبتعد عنها.

أضافت:

- سنرى!

***

لم أدرس ذلك الصباح أيضًا يا نبيل، لم أدرس بسببك، ولم أتناول كعكة اللوز وكوب الحليب الذي وضعه العمُّ إدريس أمامي ككلِّ صباح، ولم أفتح دروسي التي تقضي أيامها ولياليها على هذه الطَّاولة!

كنتُ أراقبُ طوال الوقت الباب الزُّجاجي وأبحثُ عنك، كنتُ أعرفُ أنكَ ستعود، كنتُ أُحاول أن أقنع نفسي أنَّني رأيتُ في نظراتك أنك ستعود وأنك أيضًا مثلي؛ تُريد لقاءً آخر، ولم أكُن أعرفُ أنَّ ما قُمت به البارحة مع أصدقائك لم يكُن صُدفة ولم تكُن مجرد عقوبة لفشلك في اللُّعبة!

تأخرتَ يا نبيل، تأخرت كثيرًا فبرد كوب الحليب وبردتْ لهفتي للغرق في عينيك وبدأت يدي تعبثُ مجددًا بأحد لوالب شعري ككلِّ مرة حين أتوتر أو أحزن!

- مرحبًا!

قالها صوتٌ هادئ فجأة أخرجني من شرودي.

توقفتُ عن رسم خطوط مُتوازية على دفتري ورفعتُ رأسي نحوك، واصطدمت نظراتنا كما يصطدمُ نيزك كبير مع الأرض مُولِّدًا طاقة غريبة داخل صدري وغضبًا غريبًا داخل عينيك!

قلتُ لك بصوتٍ مخنوق:

- مرحبًا!

فقلتَ لي ساخرًا:

- أنا آسف، ظننتُكِ شابة أخرى قابلتها البارحة هُنا وجعلتها تبكي دون قصد!

ثمَّ أضفتَ وأنت تحمل وردة حمراء وضعتها على الطَّاولة وعُلبةً مُغلفة:

- ألم تريها؟ أُريد أن أقابلها، إنها ترتدي في العادة بيجامة زهرية يتوسطها ماعز لطيف وتجمع شعرها أعلى رأسها!

راقبتُ وأنا أضحكُ حركات يدك التي تصنع كعكة وهمية على شعرك القصير وتأملتُ الخصلات البيضاء التي غزته بشكلٍ واضح!

أظن أنَّني لم أخبرك من قبل كم أُحبُّ شعرك القصير في زمن أصبح يتهافت فيه الذكور على إطالة الشَّعر وتنعيمه وصبغه والعناية به، ولم أخبرك أيضًا كيف تجعلني خصلاتك البيضاء الجذابة على شعرك ولحيتك أذوب وأتلاشى كلما نظرتُ إليك!

***

قلت لِي فجأة:

- يبدو أنها لن تأتي اليوم، هل تستطيعين أن تُسدي لي خدمة؟

وأمام صمتي ودهشتي استطردتَ:

- أعطيها هذه الوردة وعُلبة الشوكولاتة وأخبريها أنَّني آسف لأننِي جعلتها تبكِي.

قلتُ لك:

- حسنًا، سأفعل.

ثمَّ أضفتُ:

- هل أستطيعُ أن أتناول حبَّة شوكولاتة؟

لتُقاطعني:

- لا، إنها لها فقط لكي تُساعدها على الدِّراسة.

صمتَّ قليلًا لتقول مازحًا:

– ولأنَّها أجملُ منكِ.

– حقًّا؟

قلتُ لك وأنا أعضُّ شفتي بغيظ.

فقلتَ واثقًا:

- نعم، هي كانت استثنائية ولا تضع هذه الألوان على وجهها، بينما أنتِ تُشبهِين كلَّ الوجوه في الخَارج الآن!

أحنيتُ رأسي وداعبتُ قلمي بين يديَّ لأسمعك تُتمتم:

- حسنًا، أنتِ أيضًا جَميلة، أنا فقط أشعرُ بالغيرة.

رفعتُ رأسي بصدمة في اتجاهك وتأملتُ ملامحك الجدية غير مُصدقة كلماتك الجريئة والصَّريحة.

كنتَ دائمًا صريحًا يا نبيل، حقيقيًّا لا تُحبُّ الإطالة ولا اللف والدَّوران، ولا تنجحُ أبدًا في الكذب والتَّمثيل.

سحبتَ الكرسيَّ أمام دهشتي وجلستَ بهدوء ثم قلتَ لي ببراءة:

- كلُّ هذه المسرحيَّة لكي أتعرفَ عليكِ، لم أخسر في أي لُعبة ولم يطلبوا مني التَّحدث معكِ، أنا فقط قُمتُ باستغلالهم للفت انتباهك حين قضيتُ أيامًا طويلة في مراقبتكِ تدرسين دون أن تنظري إليَّ ولو لمرة واحدة!

***

تحدَّثتَ كثيرًا عن نفسك بعد أن سألتني هل هناك شخصٌ آخر في حياتي فحركت رأسي علامة النَّفي، عرفتَ من البداية أنَّني تعلَّقتُ بك وأنَّ حياتي في تلك الفَترة فارغةٌ من كلِّ شيء سوى كتبي الضَّخمة، لكنك لم تتردَّد في طرحِ السُّؤال، ولم تبذل جهدًا لكي تُخفي ابتسامتك حِين أسندتُ رأسي إلى يدي وانتظرتُ أن تُحدِّثني عنك!

أُحبُّ كثيرًا حِين تتحدَّثُ عن نفسك، حين تُخبرني عن أذواقك وعن مُغامرات طفُولتك، أعشقُ لمعان عينيك واتساع عمق غمَّازتيكَ حين تتحدثُ عن أمِّك، وحين قلتَ لي مُحذِّرًا:

- لتعرِفي من الآن، أمِّي امرأةٌ غيُورة ومُتسلِّطة، قد تُزعجُك كثيرًا.

ابتسمتُ وشردتُ في عينيك الجميلتين وفي ملامحكَ الطَّيبة، كم كنتَ طيبًا! وكمْ أثلجَت صدري صراحتُك وعفويتك وأنت تُخطِّط معي لشيءٍ ما زال بعيدًا! كم كان تحدثك عن المستقبل بتلك البساطة والتلقائية غريبًا في لقائنا الأول! وكم كنت بريئًا جدًّا وأنت تَنظُر إلى ساعتك وتهمس لي:

- توقيتي سيئ، أليس كذلك؟ لا أريد أن أعطِّلك عن دراستك، سأذهب الآن.

لو تعرفُ كم تمنيتُ أن أطلب منك أن تبقى معي أكثر، تمنيتُ أن أخبرك أنَّني لن أدرس في كلِّ الأحوال، فقط ابقَ معي وأزعجني بحديثك عن الهندسة الهيدروليكية، تحدث كثيرًا حتى أملَّ من هذا التخصص المولع به وأخبرنِي بلا تردد عن المحركات والأجهزة التي بمجرد تفكيرك بها تتغير نبرة صوتك، تحدث عن الخيارات الوظيفية التي بدأت تدرسها والتي جعلتني بشكلٍ أو بآخر أتحدَّثُ عنها معك وأشاركك برأيي بها!

هل تذكر ما الذي حصل حين وقفتَ ووضعتَ هاتفك في جيبك وأردت توديعي؟

أنا أتذكَّر جيدًا دخول أمي مع ماكو على كتفها ووقوفها أمامنا..

قالت لِي فجأة:

- نانا، ماذا تفعلين؟

ثمَّ تفحَّصتكَ من رأسك حتى أخمص قدميك.

- أمي، هذا نبيل، أقصد.. هذا صديق!

قلتُ لها بتلعثم فقالت موجهةً سؤالها لك:

- هل أنت أيضًا طالب طبٍّ؟

قلتَ لها بتلعثم:

- لا!

فردَّت بجدية:

- وأنا أيضًا فكرتُ هكذا، طالب الطب يخرج ببيجامته في هذه الفترة ولا يهتم بمظهره إلى هذا الحدِّ، ولا يتجول بلا أوراق داخل حضنه!

راقبَتكَ للحظات قبل أن تنفجر ضاحكة وتضيف:

- أنا أمازحك، ألم تحكِ لك نانا أنَّني أمزح كثيرًا؟

أحنيتَ رأسك خجلًا، واحمرتْ بشرتك البيضاء ولم أعرف لحظتها أنَّك لم تخجل فقط من كلماتها، بل لأنها كانت مُدرستك في المرحلة الابتدائية!

***

أنتَ لا تعرفُ يا نبيل كيف قضيتُ ذلك اليوم، لا فكرة لك عمَّا فعلتُه بعد مُغادرتك ولم أحكِ لك عنه من قبل، لكن يومها، تغيَّر شيءٌ ما داخلي إلى الأبد!

مرضتُ يا نبيل، مرضتُ وارتفعتْ حرارتي وانقلبت موازيني، شعرتُ بآلامٍ في صدري، آلام غريبة تُشبه حريقًا هائلًا شبَّ بقلبي مُخلِفًا خسائر جسيمة بدقَّاته وانتظامه.

شعرتُ بضيقٍ في التَّنفس، بصُداعٍ ودوخة وخدر في أطرافي وجفافٍ في حلقي!

شعرتُ بأن دخولك السَّريع والغريب إلى حياتي يفوق قدرتي وطاقتي، شعرتُ بأنَّني تورَّطتُ لأول مرة في حياتي، وأنا لم يكن يجبُ عليَّ أن أتورَّط يا حبيبي!

أصرت أمي عليّ لكي تأخذني إلى الطَّبيب طوال اليوم وأصررتُ أنا أنَّني أعرف ما بي، وأنَّني سأصبحُ غدًا بخير.

قالت وهي تضع يدها الباردة على جبيني:

- هل تريدين أن أتركك هكذا؟

لأرد بصعوبة:

- أمي، أنا في السَّنة السادسة الآن، ألا تثقين أن ابنتكِ ستُصبح قريبًا طبيبة؟ هل تشُكِّين في قدراتي؟ سأصبح بخير غدًا، إنها مجرد نزلة برد!

فردت:

- كل هذا لأنكِ اعتدتِ سترتكِ القطنية واليوم ارتديتِ ذلك القَميص الأبيض الخفيف.

فعرفتُ أنها ستُحدثني عنك، وأنها لم تقتنع بقصة الصَّديق تلك.

أضافت بحذر:

- منذ متى تلتقين بأصدقائك في فترة الامتحانات؟

سحبتُ البطَّانية ودفنتُ رأسي تحتها، اقترب ماكو ودفن جسده النَّاعم معي وأخذ يداعبُ وجنتي وكأنه يواسيني.

قالت بصوتٍ مرح:

- هو ليس صديقًا، أليس كذلك؟

فاكتفيتُ بصمتي وباختفائي.

- لكن هل يُعقل أن يجعلكِ تمرضين وتلتهين عن دراستكِ؟!

قالت ذلك لكنني قاطعتها دون أن أخرج من مخبئي:

- لا تخافي يا أمي، لن أُقابله مجددًا.

- لماذا؟

قلتُ لها وأنا أضع يدي على قلبي الذي بدأ يقفز من مكانه مُحتجًّا:

- هذا ما يجب أن يحصل.

لكن ذلك لم يحصل، لم أستطع أن أمنعه، وبمجرد أن لمحتُ اسمك على شاشة هاتفي قفزتُ من مكاني وتنفستُ بعمق ثم تلهفتُ لسماع صوتك:

- عيون الغزال!

قلتَ بمرح.

قلتُ لك بدهشة:

- أهلًا.

- كيف حالكِ؟ أتمنى أنَّني لا أزعجك.

لا تُزعجني يا نبيل، أنت لم تُزعجني ولا مرَّة، لكنَّني تمنيتُ أن أسألك لماذا ناديتني عيون الغزال!

أجبتك بخجل:

- لا!

- هل درستِ جيدًا كما وعدتِني؟

- نعم.

قلتُ لك، وكانت تلك أوَّل مرَّة أكذبُ عليك فيها!

هل كان يجوز أن أخبرك أن اقتحامك عالمي الهادئ بعثر انتظام حياتي؟ هل كان عاديًّا أن أخبرك منذ اليوم الأول أنني مرضتُ بسببك؟ أنك شتت انتباهي وتوقف بسببك عقلي وحواسي عن العمل بشكلٍ مؤقت؟!

قلتَ لي ببراءة:

- ادعي من أجلي، لديَّ مقابلة عمل غدًا، وسأدعي من أجلكِ كثيرًا، تُصبحين على خير.

***

إنَّها الثَّامنة والنّصف..

ترتجفُ أطرافي وأنا أقتربُ من قوس الورد ذلك، وقفتُ بتردُّد أمامه ووضعتُ يدي على صدري بخوف..

وأكثر ما أخافني هو مُقابلة أمك في تلك اللَّحظة!

ألقيتُ نظرة سريعة على الدَّاخل، لمحتُ أولًا تلك الطَّاولة الزُّجاجية التي بالغوا في تزيينها بالشُّموع الملوَّنة والورد الأحمر، ثمَّ ذلك النَّادل الشَّاب الذي يقفُ بشموخ خلفها مُستعدًّا لمهمَّته الرَّئيسية، لقد بدا وكأنه مُتلهفٌ لكي يجعلكَ تضع الثمرة المنسمة بماء الزَّهر في فمها ويجعلها تضع واحدة بين شفتيك قبل أن يطلب منك أن تسقيها من كأس الحليب البارد المزخرفة ويجعلها تروي ظمأك بعدك بالطريقة نفسها!

هل تتذكَّر كيف عشنا معًا هذه الطُّقوس في ليلة خِطبتنا؟

من المؤكد أنكَ تتذكَّر، فأنتَ قضيت أيامًا وأسابيع في السُّخرية مني ولومي!

رددت للجميع بلا ملل ولا كلل أنَّني تعمَّدتُ اختيار حبَّة التمر التي لم ينزعوا منها نواتها لكي يضعوا مكانها حبة الجوز، تُصر أنني وضعتها داخل فمك بسرعة لكي تُحطِّم أسنانك، وكنتُ أغضب، أغضبُ كثيرًا منك يا نبيل حين تتهمني بمحاولة الاعتداء عليك بينما أنا أبكي وأظل أداعبُ ذقنك بلُطف إذا جرحتَ نفسك جرحًا بسيطًا وأنت تحلقها..

نعم أغضبُ حتى لو كان مزاحًا، وحتى كوب الحليب الذي سكبتُه على بذلتك الأنيقة ليلتها لم يكُن من مخططاتي الماسونية الشِّريرَة لكي أنال منك!

فما الذي ستفعله خطيبتك الجَديدة هذه اللَّيلة؟

هل سترتبكُ لدرجة أن تُفسد تلك اللَّحظات الجميلة مثلي أم أنَّها ستختار لك بعناية أجمل حبة تمر وأكبرها حجمًا وستضع كوب الحليب برفق بين شفتيك دون أن تجعلك تأخذ حمَّامًا كليوباتريًّا باردًا؟

وأنتَ؟

ماذا ستفعل وبماذا ستشعر؟

هل ستتذكرني وتتذكر ما فعلته بك بينما تُمارس معها هذه الشَّعائر التقليدية؟ وهل ستبتسمُ وتحكي لها بغيظ عني أم أنكَ ستُقطِّبُ حاجبيك وتُفكر أنَّك ارتكبت خطأ حياتك في الوقوع في حبِّ امرأةٍ خرقاء مثلي؟

يقتلني الفضول يا نبيل عما تفعله الآن وعمَّا تفكر به وعن كلِّ ما تشعر به!

***

أحبُّك يا نبيل..

أحبُّك كثيرًا وأحببتُك بسُرعة..

كلُّ يومٍ مر في حياتي التي أضاءت بوجودك والذي بدد كلَّ الظَّلام حولي كان يكشفُ لي أنَّني محظوظة بحبٍّ رجل مثلك لي.

كلُّ لحظة عشتُها وأنتَ معي أكدت لي أن الله يُحبني لأنه رزقني قلب شخصٍ مثلك!

كل لحظة!

أنتَ نبيلٌ حقًّا، ومن اختار اسمك كان يتنبأ بنُبلك، بذكائك وشرفك ورجولتك..

وقد أخبرتك من قبل بهذا فقلت لي بتواضع:

- أنتِ تُبالغين!

لكنني لا أُبالغ.

وأنت قلت لي ذات يومٍ إن اسمي يليقُ بي أيضًا وإنكَ تُحبُّه، إنَّني قطرةُ النَّدى الدافئة التي سقطت على قلبك وبلَّلته بحُبٍّ لذيذ..

لكنَّك لا تُناديني باسمي إلا حين تغضب، وأمي أيضًا لا تُناديني باسمي وأصبحتُ بالنسبة لها «نانا» منذ زمن..

وجميع أصدقائي يُنادونني «نونة» وبعضهم «نودي» أو «ديدا»..

وكأنكم اتفقتُم أنكم يجبُ ألا تنطقوا بـ «ندى» أمامي!

***

هل تذكر كيف فاجأتني صباح الامتحان بوقوفك أمام بيتي؟

لم أصدق أنني رأيتُك هناك عند الفجر تقف أمام سيَّارة والدك التي سرقتها منه لكي تقلني إلى المستشفى الجامعي!

لم أخبرك أنَّني اشتقتُ إليك كثيرًا ولم تعرف قط أنَّني كنتُ أرغب في الارتماء في حضنك، كتمتُ كلَّ تلك المشاعر داخل جَوفي وقلت لك بهدوء:

- لماذا أزعجت نفسك؟

فقلت لي ببراءة:

- أنا لا أنزعجُ من أي شيء أفعله من أجل عائلتي.

تفاجأتُ بك مجددًا يا لعنة قلبي، تفاجأتُ وتفاجأ قلبي الذي بدأ يقفزُ بمرح داخل قفصي الصَّدري من كلماتك..

ما أغربَ هذا الشُّعور وما ألذه!

أن تجعلني أشعر بهذه الطَّريقة البسيطة أنَّني فردٌ مهم من عائلتك، تخافُ عليه وتحميه وتستمتع بمُساعدته، هذا كل ما تريده أي أنثَى من الرجل الذي تُحبه.

أمام المستشفى قلت لي:

- أنتِ درستِ جيدًا، وتعرفين كل هذه الأشياء، هي امتحانات تطبيقية فقط لما تعرفينه، لذلك لا تتوتري كثيرًا، تنفسي بعُمق واقرئي بعض الآيات وأنتِ تدخلين.

كنتُ أريد أن أقول لك فقط إنَّني أحبك وليحترق كلُّ شيء آخر.

أخذت عُلبةً صغيرة من المقعد الخلفي وفتحتها ثمَّ قلتَ لي:

- هذا عنبٌ مجفف، سرقته من أمي من أجلك، لا تضحكي، تناوليه فقط!

قلتُ لك بسخرية:

- هل تظن أنني سأنجح إذا تناولتُ مسكرات مسروقة؟

فقلتَ لي:

- نعم، ستنجحين بإذن الله.

- لنتناوله معًا إذن.

وقبل أن أغادر قلت لي باعثًا أملًا وسعادة كبيرين في قلبي:

- أريد إخباركِ بأنَّني قُبلت في تلك الشَّركة وأنَّني سأبدأ العمل الأسبوع المقبل.

- مبارك، سعيدةٌ بذلك.

قلتُ ذلك بلهفة وتمنيتُ أن أختم جملتي القصيرة تلك بـ «يا حبيبي»!

***

قال لي النَّادل فَجأة حين لاحظ شُرودي به وبالطَّاولة:

- تفضَّلي يا آنسة!

نسيتُ أن الضُّيوف في الأعراس المغربية يتلقَّون عنايةً واهتمامًا أكثر من العروسين حتى، ونسيت أن التَّمر والحليب يُقدَّمَان لهم أيضًا وبشكلٍ أنيق وراقٍ!

لكنني لم أكُن ضيفة ولم يقُم أحدٌ بدعوتي لهذه الحَفلة!

اقتربتُ خطوتين في اتجاهه وأنا أتفحصُ القاعة من الدَّاخل، كانت مُمتلئة بالكامل وقد انتشر الضُّيوف بكل الزَّوايا في انتظاركما.

حين وقفتُ أمامه سكب حليبًا طازجًا في كأس صغيرة ومدَّها في اتجاهي، مددتُ يدي المرتعشة وأمسكتُ بها وتأملتُها للحظَات!

كنتَ تُمسكُ يدي بين يديكَ دائمًا حين أتوتر وأبدأ في الارتجَاف، لكنك هذه اللَّيلة لست هنا لكي تُمسكها بحنوٍّ بين يديك وتُقبِّلها حتى تهدأ.

***

أذكر ذلك اليوم ولا أستطيعُ ألَّا أُفكر به الآن..

أذكر جيدًا كيف تركتُ المستشفى وأنا في حالة انهيار لأنني فشلتُ في اختبار أمراض النساء، كنتَ واقفًا تسند جسدك إلى مُقدمة السَّيارة وتنظر إلى ساعتك بقلق، لم تنتبه إلى وجودي، فأنا تقدمتُ نحوك بخطواتٍ ثقيلة وكئيبة، ثمَّ قلتُ لك بصوتٍ باكٍ:

- لم أنجح يا نبيل!

التفتَّ إليّ بفزع وقفزت من مكانك نحوي ثمَّ أمسكت يدي المرتجفتين بلُطفٍ بين يديك وقلت لي بحنان:

- المهم أن تكوني بخير.

ثم قمتَ بتقبيلهما طويلًا حتى اختفت الارتجافة.

قلتُ لك حين هدأت:

- نجحتُ في اختبار طبِّ الأطفال لكنني فشلتُ في طب النِّساء.

فقلت لي:

- النجاح يأتي دائمًا بعد أن نتجرع من مرارة الفشل، لا بأس يا عيون الغزال، ستنجحين في المرة المقبلة.

ثمَّ طبعتَ قُبلات خفيفة على راحة يدي حتى كاد يُغمى عليَّ من الخجل والإثارة.

أخذتني بعد ذلك إلى صالة بولينغ قريبة، ثمَّ تركتني أتغلبُ عليك لكي أشعرَ بأنَّني قويَّة.

كنتَ دائمًا تُعقم جروحي وتخيطها وتعتني بندباتي وتعالجها بقبلاتك وحبِّك وحنانك، فكيف أنجو هذه اللَّيلة الكئيبة دونك؟ كيف سأواجه كلَّ هذا وأنت لست معي ولا حقَّ لي في قُبلة بريئةٍ منك ولو من بعيد؟

***

- ماذا تفعلين هُنا؟

اقتحم هذا السُّؤال الخَشِن مسامعي وأنا أتأملُ الحليب وأتساءل هل يُمكنني أن أشربه، وما الذي سيحدُث لو وصل إلى معدتي، وهل بهذه الطَّريقة سأباركُ زواجكما كجميع الضُّيوف!

أعرفُ هذا الصَّوت وهذه الجرأة الممزوجة بنكهة الوقاحة..

التفتُّ لتقع عيناي في عيني صديقك، لن أنكر أن نظراته الغاضبة جعلتني أتراجع خطوة إلى الخلف..

أكرهه!

أكرهه كثيرًا وأعرفُ أنَّه يكرهني، وأعرفُ أنكَ تشعر بأنَّني لا أرتاح له، لكنني لم أخبرك بذلك من قبل، لم أكن قط من النساء اللواتي يتدخَّلن في أصدقاء الرَّجل وإن كنتُ أريد ذلك بشدَّة، لكنَّني لم أفعل، أعرفُ

أنكَ تحبه وأنكَ عرفته قبلي وجمعت معه ذكريات وتضحيات أكبر من أن تمسحها أنثى دخلت حياتك مؤخرًا،

لكنني لا أحبه، لا أحبُّ جبينه البارز وفكه العريض وشفتيه الدقيقتين، لقد كان في نظري دائمًا «الولد السيئ» في شلَّتك!

هل تذكُر حين أخذتني إلى حفلة عيد ميلاده البائسة؟ هل تذكر كيف استقبلنا عند الباب حين تفاجأ أنك أحضرتني معك دون أن تُخبره فقال بسخرية مقززة:

- لماذا أحضرتها؟ أنا لم أطلب منك ذلك!

قلتَ له ببراءة وأنت تُمسك يدي:

- هذا ليس وقت مزاحك الثقيل يا أيمن.

لكنه أضاف بجرأة:

- أنا لا أمزح!

فانفجر بقيةُ أصدقائك يضحكون ويتهافتون، شعرتُ لحظتها أنه سيغمى عليَّ من كثرة خفقان قلبي!

لم يقع أصدقاؤك في حبي كما فعلت أنتَ، ولم أبادلهم الحبَّ أيضًا، وأكثر ما أزعجني في تلك الليلة أنك لم تدافع عني ولم تُحاسب ولا واحدًا منهم على سخريته مني واكتفيت بالنَّظر إليَّ طوال الحفلة ومداعبة يديَّ وشعري ظنًّا منك أنها قادرة على معالجة الجروح التي سببوها لي!

لكنه لا يعرفُ الآن أنَّني لستُ نفس الأنثى الضَّعيفة التي اعتاد مضايقتها بكلماته القاسية، لا يعرف أنني تغيرتُ كثيرًا وأنَّ كلَّ ما مرَّ بي جعلني امرأة قوية وجَارحة وسامَّة مع كلِّ من يقتربُ مني ويحاول لمسي!

قلتُ له وأنا أضعُ يدي على أنفي باشمئزاز حين انبعثت من أنفاسه رائحة الكحول:

- ما شأنك؟

حاول أن يُخيفني بنظراته وحين شعر أنها فاشلة في ذلك أضاف:

- هل أنتِ بلا كرامة؟

قلتُ له بسخرية:

- رُبَّما، لكن مهما حدث ستظلُّ كرامتي أعلى من كرامتك دائمًا يا قليل الأدب والتربية.

ثمَّ ابتعدتُ عنه وركضتُ في اتجاه دورة المياه.

لن أستطيع أن أصف لك شعوري وأنا أخبره بما خبَّأته داخل قلبي كلَّ هذا الوقت، كم كان مريحًا أن أقذف تلك الكلمات التي ظلت عالقة في بلعومي منذ أول لقاء لنا!

***

لا شيء يُدمر المرأة كرُؤية أحلامها تسقُط منها، وكشعورها بأنَّ قلبها يتأرجح داخل صدرها، وكفشلها في الإمساك بالرَّجل الذي تُحبُّه كفشل الكيميائي في إمساك سائل الزئبق بين يديه!

لكِنني لم أكُن من قبل امرأة أبسط أحلامها رجل!

لم يكن قلبي يتأرجحُ ويتمايل ويهتزُّ هكذا قط..

ولم أحاول الإمساك بأيِّ شخصٍ آخر بعد أن فقدتُ أول وأعظم حبٍّ في حياة كلِّ امرأة!

كنتُ امرأةً حُرَّة، قوية، لا تصلُح للحبِّ..

كنتُ امرأة تخيط ثوب أحلامها الكبيرة بالدَّم، وتنحتُ حكايتها بأظافر الإصرار والعزيمة، وتمزقُ كلَّ من يقف في طريقها كما يُمزَّقُ جلد الغزال بين أنياب الفهد!

لم أكُن هكذا يا نبيل..

لم يكن قلبي هدفًا سهلًا للدغات العِشق، ولم يكُن قط ملجأً لنار الغيرة والحيرة والجنون..

لم أكُن أرتبك، وأتردد، وأرتعشُ، وأتألَّم..

لم أكُن أتوقع بأنَّ هذه العضلة التي تنام بين رئتيَّ بهدوء ستجد وظيفةً أخرى غير ضخِّ الدم المحمَّل بالأكسجين والغذاء لباقي أنحاء جسمي، وسيصبح دورها الرئيسي التَّفكير بك، والتقلص بسببك، والاحتراق والانصهار والانفجار عند ذكر اسمك أو شمِّ عطرك!

لم أكُن هكذا يا نبيل، لكنَّني قابلتُك..

وكلُّ أنثى مهما عاندت، ومهما ظنت أنها أقوى من الأخريات، وأنها لن تسقط في فخ الحبِّ ولن تتذوق مرارته ولن تغريها لذَّته قبل أن تسممها كما أغرت التفاحة بياض الثلج - لا بد وأن يأتي يومٌ وشخص تضعف بسببه ويغريها بتفاحة الحبِّ الطازجة ويسرقُها منها إلى الأبد!

ولستُ نادمة أبدًا لأنني قابلتُ شخصًا مثلك، وأحببتُ شخصًا مثلك، ولا أبكي الآن لأن قلبي وكرامتي اغتيلوا على يد شخصٍ لطيف مثلك!

***

وقفتُ قبالة المرآة وطالعتُ عيون الغزال التي تُحبّها، ثمّ مسحتُ دمعةً حارّة بدأت في التّكون في غددي الدّمعية!

قلتَ لي ذات يوم إنَّك لن تستطيع أن تعيش دون أن تنظر إلى عيني، ولن تستطيع أن تتنفَّس دون أن تمرر أنفك وشفتيك على رموشي الطَّويلة، ثمَّ أضفت مهددًا:

- ولا أضمن لكِ أنَّني سأتحكَّم دائمًا في رغبتي الجامحة في أكلها والتلذذ بها كما أتلذذ بحبات الزيتون السَّوداء.

لكن عيون الغزال التي تُغريك ذابلة اليوم ومالحة وطعمها كطعم الزقوم!

***

اقتحم انعكاس صورة أمك المرآة فجأة!

ضربتني ولامتني واحتقرتني بعينيها الحادَّتين ثمَّ قالت بلسانها الأكثر حدة:

- هل فقدتِ عقلك؟ ماذا تفعلين هنا؟!

يبدو أنَّني سأسمع هذا السُّؤال كثيرًا هذه الليلة، أليس كذلك؟

هل تذكر أول لقاءٍ لي معها؟

هل تذكر كيف أصررت عليَّ لكي أُقابلها وكيف رفضتُ بعناد لكِنني ضعفتُ واستسلمتُ لك في النهاية؟

أنا أضعفُ دائمًا أمام توسلاتك، لكن صدِّقني كنتُ أشعر أن ذلك اللقاء سيكون غريبًا ومجنونًا..

نحنُ شرقيون، كيف ظننتَ أن امرأةً ستتقبل فكرة أن ابنها سيُحضر لها امرأة أخرى ويقول لها بسعادة:

- أريد أن أعرفك على حبِّ حياتي.

ربَّما أمي تقبَّلت الأمر، لكنني كنتُ أعرف أن أمك ستظُن أنني فتاةٌ سيئة وجريئة ومتمردة!

كنتَ مجنونًا يا نبيل، مجنونًا أكثر لأنك قررت أن لقاءنا سيكون في عيادتها، لا أصدق الآن أنني طاوعتك في هذيانك..

أخجلُ كثيرًا حين أتذكَّر نظراتها الحَادة والقاسية وهي تمسك ملقطًا كبيرًا بين يديها وتضع كمَّامة على شفتيها..

قلتَ لها حين جذبتني ودخلنا إلى الصَّالة التي تعمل بها:

- حبيبتي، أُريد أن أقدم لكِ حبيبتي الثَّانية، وهي أيضًا طبيبةٌ مثلك، وجميلةٌ ورقيقةٌ مثلك.

سقط الملقط من يدها وظلت عيناها تتفحصاني بفضول وصدمة..

أخطأتَ كثيرًا يا حبيبي، أخطأتَ في جلبي إلى هناك، في طريقة تقديمي لها ومقارنتي بها..

أخطأتَ كثيرًا في جعلي -بلا وعي منك- منافسةً لها، وشبيهة بها، وعدوة لها تريد سلب عقل وقلب ابنها الوحيد المدلل!

وخطؤك الأكبر كان طلبك منها الاعتناء بكل أسناني لتجعلني أستلقي على كرسي الأسنان ذلك وتضع داخل عيني تلك الإضاءة الكثيفة وهي تنظُر إليَّ بحقد..

كما تنظر إليَّ الآن بالضبط في المرآة!

***

استَدرتُ ببطء نحوها ووقفتُ أطالع قُفطانها الزَّهري والورود اللامعة المطرَّزة عليه وطرحتها الشَّفافة بلون الذَّهب، ثم تأملتُ مكياجها؛ كحل عينيها وأحمر شفاهها الفاتح المبهج..

كانت سعيدة جدًّا في زفافك من امرأةٍ أخرى لا تُحبها، وظهر هذا في ملابسها وزينتها، وكانت تعيسةً جدًّا حين كنا نحن سُعداء في خِطبتنا فجاءت إلى بيت أمِّي بجلباب أسود كئيب ووجهٍ شاحب فارغ من آثار المكياج والحياة!

قلتُ لها فجأة:

- لماذا تكرهينني؟

فقالت بآلية وهي تُشير بيدها نحو باب دورة المياه:

- غادري حالًا، أنتِ لستِ مدعوة!

اقتربتُ منها بجُرأة وتأملتُ عينيها الآسيوية مطوَّلًا ثم قلت لها:

- لن أُغادر قبل أن تجيبي عن سؤالي، لماذا تكرهينني أنا؟ لماذا أنتِ سعيدةٌ الآن بينما كنتِ تعيسةً جدًّا في خِطبتي؟

تنفَّستْ بصعوبة وتحاشتْ النَّظر إليَّ، بلَّلت شفتيها بلعابها ثم قالت:

- لأننِي أعرفُ أنَّكِ لا تُحبين ابني.

قلتُ لها وأنا أشعر بألمٍ يخترقُ صدري:

- ماذا تعرفين أنتِ عما أشعر به؟ لماذا أنا هنا إذن؟

قاطعتني بغضب:

- لأنكِ أنانية، أنتِ مُجرد أنانية، شيطانة صغِيرة مُدلَّلة، هيا غادري.

بدأتْ أنفاسي تتقطع وأنا أراقبُ عينيها القاسيتين وكلماتها الجَارحة، وبدأت يدي ترتجف وتهتز كما لم تهتز من قبل. أضافت بقسوة:

- أمُّكِ الغبية دلَّلتكِ أكثر من اللازم فظننت أن النَّاس من حولكِ خدمٌ تحت إمرتكِ، عبيد تتحكمين بهم، أنتِ أنانية مريضة، أشفق عليكِ أحيانًا، لولا هروب والدكِ منكما لما أصبحتِ هكذا.

انفجرت دموعي كالسَّيل يجرفُ كلَّ ذكرياتي وأحزاني ومأساتي.

أضافت:

- ومن يعرف؟ ربَّما هرب منكِ أصلًا لأنه لم يتحملك فكيف، تريدين أن أرمي طفلي الوحيد أمامك؟!

رفعتُ يدي لكي أصفعها على وجهها الصَّغير..

كانت تلك أول مرَّة في حياتي أرفع يدي على شخصٍ ما، وكانت أيضًا أول مرة يؤذيني فيها شخصٌ ويُمزِّق قلبي إلى ذلك الحدِّ..

لكنني توقَّفتُ، بصعوبة، توقفتُ وكظمتُ غيظي وخرجتُ من دورة المياه، ثمَّ انهرتُ على الأرض!

***

أنا كنتُ طِفلة..

طفلة في السَّادسة من عُمرها حِين قرَّر أبي جمع كلّ أمتعته ومُغادرتنا..

كنتُ طفلة صغيرة لا تفهم أيَّ شيء، فكيف يُمكن أن أكون السَّبب في رحيله؟!

وكيف يُمكن أن تكون والدتك قاسية إلى هذا الحدِّ؟! وكيف يُمكن لشخصٍ غليظ وعديم الإحساس مثلها أن يُنجب ويربي شخصًا عطوفًا ورحيمًا مثلك؟!

كانتْ هذه هي كذبتي الثَّانية..

أبي!

حين سألتني أوَّل مرة عن أبي توترتُ وتلعثمتُ وضِعتُ، لكنَّني قلت لك في النِّهاية إنه سافر لكي يعمل خارج البلاد..

خفتُ أن تعرف أن أبي يعيشُ معي في نفس المدينة ولا يسألُ عني ولا يهتمُّ بي فتحتقرني وتستصغرني..

خفتُ أن تتركني، أن تذلني حين تعرفُ أنه استيقظ ذات صباح وقال لأمي إنه لا يريدنا بعد اليوم وإنه سيذهب مع امرأةٍ أخرى يُحبُّها..

خفتُ أن تهزأ بي أو أن تجلدني ولو بلا قصد إذا عرفت أنه قال لنا إنه نادمٌ على وجودنا في حياته وإنه لا يريد أن يعرف عنا أي شيء، وسيكتفي بإرسال المال لنا شهريًّا من باب الإنسانية، وأنه بلا رحمة هدَّدنا ألا نقترب منه أو نبحث عنه لأي سبب من الأسباب.

ما زالت تتردد جملته داخل رأسي حتى الآن..

«لا أريد أن أراكما، لا تبحثا عني ولا تقتربا مني، لأي سبب وتحت أي ظرف، حتى الموت لا أريده أن يجمعنا».

***

تُؤلمني كثيرًا الطَّريقة التي عرفتَ بها كذبتِي الكَبيرة!

تؤلمني كثيرًا يا نبيل نظراتُ الشَّك والحيرة التي رأيتها داخل عينيك..

يُؤلمني أكثر أن هذا حدث في ليلة خِطبتنا، وتؤلمني ردَّة فعلك حتى الاختناق..

تؤذيك حقيقتي دومًا يا نبيل وتُؤذيني طيبتك معي وحبك اللامشروط لي!

هل تتذكر ليلة خِطبتنا؟

تلك الليلة البَاردة، الممطرة!

تلك الليلة التي أجَّلتها كثيرًا، تارة بسبب امتحاناتي وتارة بسبب مرض أمي الوهمي، وتارة أخرى لأسباب تافهة وغير مُقنعة!

لكنها أتت أخيرًا..

تأتي عاجلًا أم آجلًا الأشياء والأحداث والكوارث التي نؤجلها، تأتي ولا تكترث لهروبنا وتخفِّينا منها، تأتي عندما يحين وقتها وتتلاشى محاولاتنا لتفاديها..

عبثًا حاولتُ تغيير القدر..

وعبثًا أردتُ تزييف الحقائق!

لكنني كنتُ سعيدة جدًّا.

إياك أن تشك أنَّني لم أكن متلهِّفة لأصبح خطيبتك وزوجتك..

إياك أن تشك أنَّني أعشقك أكثر من أي شيء آخر في حياتي.. إياك أن تسمح لأي أحد أن يُقنعك بالعكس مهما كان!

حتى أنا!

حتى تصرفاتي وردود فعلي وكلماتي..

حتى تركي لك ورحيلي وبرودي..

أنا أحبُّكَ أكثر من نفسي، وكأيِّ أنثى تعشقُ شخصًا؛ أتمنى أن أتزوجك وأعيش لما بقي في حياتي داخل بيتك وفي سريرك وبين حضنك..

أتمنى أن تحتجزني في عقلك وبين زوايا قلبك وداخل عينيك وشفتيك..

أنا فقط كنتُ خائفة!

كان قلبي يدُقُّ بجنون وأنا أُملِّسُ شعري لأول مرة في حياتي..

كانت عيناي تقذفان ماءً مالحًا وأنا أضع على جسدي ذلك القُفطان الكريمي اللون.

بدأ الظَّلام يتلاشى داخل روحي حين اتصلت بي وقلت لي:

- حبيبتي، هل أنتِ بخير؟

فقلتُ لك كاذبة كذبتي الثالثة:

- بخير، وأنت؟

فقلتَ لي ببراءة:

- أنا هذه الليلة أكثر الرجال حظًّا وسعادة وخجلًا أيضًا!

فبكيتُ، وعلى الرغم من أنَّني كتمتُ صوتي، فإنك تشعر بي دومًا.

- لماذا تبكين يا روحي؟! ألستِ سعيدة؟

سألتني بحزن وحنان..

فكذبتُ مجددًا كذبتي الرابعة:

- طبعًا أنا سعيدةٌ جدًّا.

فقلتَ بتوتر:

- حسنًا، يجب أن أقفل الخط الآن، سنأتي بعد نصف ساعة.

كانت صرخاتي مكبوحة داخل حنجرتي وكانت أمي تراقبني بعين دامعة وأنا أضع زينتي، ثم قالت:

- لماذا أنتِ مدمَّرة؟

قلتُ لها:

- لماذا تقولين هذا؟

فردت:

- انظري إلى نفسكِ جيدًا أمام المرآة!

ثمَّ أضافت:

- أنتِ تُحبينه، لماذا لستِ سعيدة؟

فقلتُ مازحة بصوت أغرقه الحزن رغمًا عني:

- عندما ستقابلين والدته ستعرفين سبب خوفي وترددي.

اقتربت مني ولفت ذراعيها حولي ثم قالت:

- سأقتل السَّاحرة الشريرة إذا حاولت أذية طفلتي.

لكن مزحتها لم تكن كافية لإضحاكي.

أضافت:

– ما السَّبب حقًّا في حزنك يا ندى؟

– أمي، تعرفين أنني أكره هذا الاسم.

– لكنه اسمك!

– هذا ليس اسمي، هذا الاسم الذي اختاره ذلك الرجل بعشوائية لي وأنا أكرهه!

فقالت:

- هل أنتِ حزينة بسببه؟

فقلتُ لها وأنا أبعد يديها عني:

- لا، لقد مات بالنسبة إليَّ منذ زمن.

وتمنيتُ حقًّا لو كان التفكير به وتمني وجوده معي هو أكبر أسباب حزني يا نبيل،

لكنني تائهة وضائعة لأسباب أخرى، لا أستطيع أن أفسرها لأي أحد، حتى أمي!

***

فتحت أمي الباب لكم واستقبلتكم بسعادة وكان ماكو يتسابق معها ليرحب بك..

كنتُ جالسة على الأريكة الصَّغيرة، فوقفتُ حين أصبحت أمامي في الصَّالة، وسلَّمت عليَّ بخجل وكأنك تراني أول مرة، ثمَّ وضعت باقة الأزهار الكبيرة أمامي، سرقتَ منها وردة حمراء طرية ووضعتها بين يديَّ برومانسية!

اقترب والدك مني وسلَّم عليَّ قائلًا:

- مرحبا يا بنتي.

كان والدك طيبًا مثلك، بريئًا مثلك، ولطيفًا مثلك..

وكانت عيناه طبق الأصل من عينيك، ونظراته مثل نظراتك، وابتسامته تشبه ابتسامتك.

جلس بهدوء على الأريكة القريبة مني وبدأ يفرك لحيته البيضاء الصافية ويبتسم وهو يراقبك تحمل ماكو.

صاحت والدتك بغضب:

- لماذا تحمل هذا القطَّ اللعين؟ كم مرة حذرتك يا حبيبي من القطط؟ أنت تعاني حساسية!

قُلتَ لها ببراءة:

- لكن هذا الشقي لا يسبب لي أي حساسية!

أعتقد أن أمي حينها فهمت لماذا أخافُ من أمك، وأعتقد أيضًا أنها غضبت من نعتها لماكو بقط لعين، لذلك اقتربت منك وأخذته من حضنك وحبست المسكين في غُرفتها ليظل يصرخ ويتوجع لعدة ساعات وحده هناك.

وقفت أخيرًا أمامي وقالت ببرود:

- أهلًا.

واخترقتني بعينيها القاسيتين..

انحنيتُ لكي أسلِّم عليها وأُقبِّلها لكنها ابتعدت وجلست إلى جانب والدك وتركتني أتساءل كثيرًا لماذا تعاملني هكذا!

ساد للحظاتٍ صمتٌ رهيب..

أعتقد أن والدك انتظر أن تتحدَّث والدتك مع أمي، لكنها لم تفعل، فقال فَجأة بتردد:

- سيِّدتي، ابننا نبيل أخبرنا أنه يُحبُّ ابنتك وأنها تُحبُّه، وأنهما يُريدان تتويج هذا الحبِّ بالزَّواج إن شاء الله.

أعتقد أن والدك الشرطي المتقاعد الذي قضى حياته في خدمة الوطن وحماية الناس من اللصوص والمجرمين لا يملك خبرة كثيرة في الحديث وبخاصة في مناسبات كهذه، لكنه حاول جاهدًا أن يتحدث بلطف.. أضاف:

- ونحن هنا لكي نطلب يدها منكِ إذا قبلتِ.

ابتسمت أمي ابتسامة صغيرة وعدَّلت جلستها لكن أمك كانت أسرع فقالت:

- ألن ننتظر والد العروسة؟

عاد الصَّمتُ مجددًا يُغرق غرفة الضُّيوف الصَّغيرة وبدأ قلبي يُصدر أصواتًا تُشبه صوت ارتطام قطرات المطر تلك على السَّقف.

تأملتُ ملامح أمي المدهوشة وبشرتها البيضاء وهي تتلونُ بلونٍ زهري غامق!

قلتُ لأمك بصوتٍ مُرتجف وأنا أنظر إلى أمي:

- أبي لم يستطع أن يأتي.

فتحت أمي فمها بصدمة وراقبت كذباتي وألمي وتخبطي بين مخالب والدتك التي أضافت بلا رحمة:

- لم يستطع أم لم يرغب في ذلك؟

قررت أمي لحظتها إنهاء تلك السَّحابة الغاضبة التي بدأت تبتلعني فقالت:

- لا، لم يرغب في ذلك، لأنه تركنا منذ عشرين سنة ولا نعرف عنه أي شيء وهو أيضًا لا يعرف عنا أي شيء.

وقفتُ بتوتر وكسرتُ المزهرية التي تقبع على الطَّاولة الزجاجية ثم دخلتُ غرفتي واستلقيتُ على سريري، وشرعت في بكاءٍ طويل!

تسلل عِطرك فجأة إلى قلبي، واخترقت لمستك جلدي ووصلت حتى أعمق الأماكن داخلي، ثم قلتَ:

- لماذا كذبت عليَّ؟

دفنتُ رأسي أكثر تحت وسادتي وبكيتُ أكثر وتمزَّقتُ أكثر!

جذبتني بلُطف من ذراعي وأمسكت رأسي بين يديك ثمَّ قلت لي:

- لماذا يا ندى؟

بحثتُ داخل عينيك الغاضبتين عن قطرة حنان وعن جرعة تفهُّم، فوجدتها، لكنني أغمضتُ عيني وصمتُّ.

- حبيبتي!

قلتَ بحنان غلَّف قلبي المحطم ومسح برفق على كرامتي المثقوبة، فتحتُ عيني اللتين قذفتا دموعًا أكبر نحو خدي وراقبتُ حزنك.

أضفتَ:

- ألا تثقين بي؟

وتمنيتُ أن أقول لك إنك أكثر شخص أثقُ به على هذه الأرض!

- هل لهذا كنت تُؤجلين الخِطبة؟

أضفتَ بحزن، لكنني لم أجب عن أي من أسئلتك.

مسحتَ عيني برفقٍ وعبثت بأنفي المحمر ثمَّ تذوقت شفتيَّ بطعم الدموع، لأول مرة منذ أن عرفتك..

أمام دهشتي وتحت أنغام معزوفة دقات قلبي قلتَ وأنت تُمسكُ يدي وتضعها على قلبك:

- أنتِ هُنا مهما حدث، أنتِ حبيبتي وزوجتي وطفلتي دائمًا، وستظلِّين دائمًا هنا، لا تخفي عني أي شيء ولا تخجلي مني مرة أخرى أرجوكِ يا روحي.

***

ما أصعب أن يأتيني كلُّ هذا الحبِّ في وقتٍ وزمن ومكان خاطئ!

ما أصعب وأقسى أن أجد رجلًا تنتظره أي امرأة كل العمر، ولا أستطيع أن ألمسه وأقبله!

ما أصعب أن أتذوق حبًّا لذيذًا وفي فمي مرارةٌ كريهة!

ما أصعب أن أجدك وأفقدك في الوقت نفسه!

ما أقسى الحياة عليّ يا نبيل!

ما أقسى أن أعشق تفاصيلك وأتمناها ولا أستطيع الوصول إليها!

ما أصعب أن أنظر داخل عينيك وأتمنى تقبيلها ويدفعني القدر بعيدًا عنها!

ما أصعب أن أُمرر يديَّ على شفتيكَ فتحرقني براءتك، ثمَّ أهرب نحو ذقنك فتصعقني الكهرباء المنطلقة من قلبي!

ما أصعب أن أسحب يدي منك وكأنك لعنة بينما أنا أريدك كما يُريد المؤمن الجنَّة!

***

قلتَ لي ببراءة:

- لماذا تهرب يدك من وجهي؟ لماذا تخافين مني؟!

لكنني لا أخاف منك، أنا أخافُ عليكَ..

أمسكتها مجددًا ووضعتها على شفتيك وتلذَّذت بتقبيلها، وتماسكتُ نفسي، وتناسيتُ ألمي وأغمضتُ عيني..

احتجتُ إلى كثير من القُوة، والكثير من التماسك والصَّبر لكي أضع جبيني على جبينك وأخبرك أنني أُحبك، وأريدك وأتمناك أكثر من أي شيء آخر..

احتجتُ إلى إنزال الستارة على عقلي، وتشغيل خاصية الصَّامت على قلبي لكي أُقبلك حتى الشبع وأبوح لك بأنني أتمنى مُعجزة لكي تجمعنا!

قلتَ لي:

- لا نحتاج إلى مُعجزة، أنا هنا ولن أغادر هذا البيت حتى أُدخِل هذا الخاتم في إصبعك.

قلتُ لك بدلال:

- وهل هذا الخاتم كافٍ لكي يجمعنا؟

- ما يجمعنا ليس خاتمًا، ولا طقوسًا، ولا حفلة زفاف، ولا خربشة على عقد الزَّواج، ما يجمعني بك أكبر بكثير من كل هذا، يوجد فقط هنا.

قلت وأنت تضع يديَّ مجددًا على قلبك..

وكم أحب حين تفعل ذلك، فأشعر به يضرب أسوار قفصك الصَّدري لكي يخرج إليَّ ويكون لي وحدي!

***

- هل نعود إليهم؟

سألتني فَجأة!

فقلت لك:

- أنا خائفة من أمك!

فضحكت بقوة ثم قلت لي بجدية:

- سأجعلها تعتذر منكِ.

- لا تفعل ذلك أرجوك.

فقلت ببراءة:

- وأبي؟ هل أحببتِه؟

مما جعلني أنفجر ضاحكة وكأنني لم أبكِ قط!

داعبت خصلاتي الناعمة ثم قلت:

- وشعرك؟ أين ذهب؟ ولماذا فعلتِ به هذا؟

قلت لك:

- أردتُ أن يبدو جميلًا.

- لكنه كان جميلًا!

- هل تحبه وهو مجعد؟

- أحبك كما أنتِ بلا تزييف، وبلا تجميل، أنتِ فقط كما رأيتك أول مرة!

سألتك بسخرية عما تُحب بي أيضًا، فقلت لي بعينين لامعتين:

- أنا أحبُّ شعركِ، وأحبُّ ابتسامتك البريئة مع النادل العجوز في المقهى، أحب طريقة احتسائك للقهوة، عبثك بخصلاتك وأنت تدرسين، وضعك لرأسك على يديك حين تتعبين، أحب عينيكِ السوداوين المسحوبتين كغزالة متمردة، أحبُّ بشرتك الخمرية الصافية وتقاسيم وجهك الطفولية البريئة، أحب خجلك، وتلقائيتك، وغضبك أحيانًا، وطيبة قلبك وأنت تصنعين دُمى قماشية وتأخذينها للأطفال في مصلحة الحروق وسرطان الدم! أحبك كلك، سأكذب لو قلتُ فقط أحب جمالك الداخلي فقط، يغريني أيضًا ويجذبني بقوة جمالك الخارجي الاستثنائي، أحب كل شيء فيك، ولو مزجوا كل نساء العالم لن يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا مثلك! فلا تسأليني مجددًا هل أحبُّ شعرك المجعد أو ملامحك المجهدة، ولا هالاتك السَّوداء وتشقق شفتيكِ أثناء الامتحانات، لا تسأليني عن أي شيء، فقط أحبيني بلا حدود!

***

- ابنتي، هل أنتِ بخير؟

قال ذلك صوتٌ لطيف، أعرفه، وأُحبُّه..

رفعتُ رأسي المدفون بين يديَّ وتأملتُ ملامح والدك، شعرتُ براحة لحظية بالنظر إلى عينيه التي تشبه عينيك وملامحه الطَّيبة..

جلس على ركبتيه بصعوبة وأمسك يدي بحنان ثم أضاف:

- لِماذا أتيت يا بنتي؟

قلتُ له بصوتٍ باكٍ:

- حتى أنت يا عمي ستطرح عليَّ هذا السُّؤال؟!

فقال:

- لا أقصد إزعاجك يا عزيزتي، ما الذي حصل؟ لماذا تبكين؟

- أنت تعرف أنني أحب نبيل، أليس كذلك؟

سألته بصوتي الباكي والمخنوق.

قال وهو ينظر إلى يدي المرتجفتين:

- أعرف يا بنتي، لكنني مثله ومثل جميع النَّاس؛ لا نعرفُ لماذا فعلت هذا، لا نعرف يا ندى لماذا تخليتِ عنه بينما كان يطير من الفرح والحماس ليُجهز زفافكما وبيتكما.

تنهدتُ بعمق وقلت له:

- ربما لديَّ أسباب، ربما خفت، ربما حدثت الكثير من الأشياء وترتني، هل هذا يعني أن يركض إلى امرأةٍ أخرى ويتزوجها بهذه السُّرعة؟

- أنتِ تعرفين نبيل، لطالما كان حكيمًا ورزينًا، يفكر مرارًا قبل أي قرار، يدرس أي شيء قبل تنفيذه، يفكر بعقله وبقلبه وبكل حواسه قبل أن يفعل أي شيء، لكن يبدو أن ما فعلتِه به دمره وبعثره وشتت تفكيره وتركيزه.

قلتُ له بتوسل:

- يعني هل هو جاد الآن؟ هل سيتزوجها هذه الليلة؟

فقاطعني صوت أمك:

- ماذا تفعلين هُنا حتى الآن؟

قال لها والدك وهو يقف:

- منى!

فصاحت به:

- ماذا تفعل معها يا أحمد؟ ولماذا لم تقم بطردها؟

قال بخجل:

- منى! ماذا تفعلين؟

فردت:

- هل نسيت كل ما فعلته بابننا؟ هل نسيت كم أحزنته أم أذكرك؟

- منى!

- اسكت يا أحمد، اسكت، ها هي ذي الآن هنا حين قرر تجاوزها وبدأ حياته من جديد، تأتي لتُدمر كل شيء، إنها لعنة، إنها ابنة والدها، ورثت منه كل شيء وتريد الآن تدمير ابني!

قال وهو ينظر إليّ بنظرة مكسورة:

- لا تهتمي بكلامها أرجوك!

أضافت بقسوة:

- لقد عاد إلى المرأة التي تستحق، ولن ينظر إليك مجددًا، فغادري قبل أن تُلطَّخ كرامتك أكثر بهذه الأرض.

- ماذا؟!

نطقتُ بصعوبة وبصدمة.

قالت بصوتٍ واثق امتزج مع بداية عزف الفرقة الموسيقية وبداية الزغاريد التي ارتفعت في القاعة مُعلنة وصولكما:

- لا تعرفين، أليس كذلك؟ لكنه كان مع مريم قبلك، كان معها وأحبها وانفصلا ثم استغلك لكي ينساها، وبما أنه يتزوجها اليوم فهذا يعني أنه لم ينسَها، أليس كذلك؟

***

وقفتُ بصعوبة..

تأملتُ ملامحها الشِّريرة وابتسامتها الواسعة، ثمَّ تأملتُ والدك بحثًا عن عينيه، أو ربما عينيكَ، لكنه أبعدهما عني وبدأ ينظُر نحو الأرض!

فتحتُ باب دورة المياه وأغلقته بالمفتاح ثمَّ وضعتُ يدي على أذنيَّ لكي لا أسمع تلك الموسيقى الشَّعبية المزعجة وصوت الزَّغاريد الغليظ، لكي لا أسمع اقترابك، لكي لا أسمع صوت المغني الذي يهتف باسمك، لكي لا أسمع بكاء قلبي وصراخ كل خلية مني..

وقفتُ قبالة المرآة دون أن أبعد يدي عن أذني وتأملتُ وجهي البائس وجسدي اللعين، تأملتُ عينيَّ المتورمتين وسوائلها التي تمتزج مع كحلي فتنزل على خدودي لتترك آثارًا سوداء، تأملتُ أنفي وحواجبي المحمرة، وشفتي اللتين ترتعشان، شعرتُ بحرارة تنبعثُ من داخلي وتنتشر عبر كلِّ جسدي، وشعرتُ أنه سيغمى عليَّ من كثرة التعرق والارتجاف.

ثم هاجمتني نوبة برد، لم تختفِ حتى عندما حضنت نفسي وأغلقتُ الزِّر العلوي لسترتي الجلدية السوداء!

شعرتُ أنَّني أموت، وشعرتُ بعقلي يبحثُ في زواياه عن ذكريات ولقطات بعيدة،

بعيدة جدًّا!

كأول لقاء لنا بعد أن بعثرتني وعدت لتجلس إلى جانبها، وبدأت بالنَّظر إليك بلهفة، وبمداعبة خدِّك بتوق.

تذكرتُ تلك الليلة التي حجزت فيها مطعمًا فاخرًا وقمت بدعوة جميع أصدقائك لكي تُبشِّرهم بخطبتنا السَّريعة..

تذكَّرت كيف سقطت منها كأس العصير وتحطَّمت إلى أشلاء حين قلت لهم بتردد وأنت تُمسك يدي إنَّك طلبتني من أمي وهتفت لهم وأنت ترفع يدك الأخرى لتريهم خاتمك الفضي:

- Elle a dit oui

تذكرتُ تجهم وجهها وانقطاع أنفاسها للحظات وهي تحاول أن تتمتم لك «مبارك»، ثم خروجها إلى الشُّرفة ووقوفها لعدة دقائق..

تذكرتُ انشغالي مع ليلى وكمال وبثينة الذين أرادوا رؤية الخاتم الذي اخترته لي، وعدم اهتمامي بلحاقك بها وببقائك معها وحديثك الطَّويل معها!

تذكرتُ فجأة تلميحات أيمن وهو يقول لي:

- أنتِ تستغلِّين جيدًا الفرص التي تُقدم لك.

وتذكرتُ كم كنت ساذجة ومُقتنعة ومؤمنة بهوسك وبحبك الأسطوري لي!

مسحتُ دموعي بهستيرية لكنها لم تتوقف، بل تدفقت أكثر وبدأت تلسع بشرتي أكثر فأكثر..

تذكرتُ فجأة ذلك اليوم الذي كنا نتناول فيه طعام الغداء فرن هاتفك باسمها، فأجبتها بسرعة ثم وقفتَ بهلع وقلتَ لي:

- يجب أن أذهب، مريم تعرضت لحادث وتحتاج إلى مساعدتي.

فأصررتُ على الذهاب معك للاطمئنان عليها..

تذكرتُ خوفك وارتجافك وأنت تفتح باب سيارتها وتجلس على ركبتيك لكي تسألها عن حالها..

وتذكرتُ كيف جذبتني بقوة وأنت تقول لها:

- ندى الآن طبيبة، ستفحصك.

لتجعلني أفحصها وأسألها أسئلة روتينية، وعلى الرغم من أنها كانت بخير، ولم تتعرض لسوى خدوش صغيرة على وجهها، فإنك لم تهدأ، ولم تكترث لوجودي وأمسكت يديها كما تمسك يدي! ثمَّ حملتها بين ذراعيك على الرغم من أنها كانت تستطيع المشي ووضعتها على المقعد المجاور لك في سيارتك، ولم تمل من سؤالها عن حالها طوال الطريق إلى المستشفى، ولم تترد في الإمساك بيدها بين الفينة والأخرى غير آبهٍ لوجودي في المقعد الخلفي ومراقبتي لحالتك تلك!

توترنا كثيرًا ذلك اليوم بعد أن عادت سالمة غانمة إلى بيتها!

توترنا لكنه كان توترًا لحظيًّا، وغيرة لحظية لأي أنثى تشاهد حبيبها يهتم بأنثى أخرى!

صرختُ وبكيتُ وانهرت بسببك وهدأتُ في النهاية وأنا أقنع نفسي أنك طيب القلب أكثر من اللازم.

وعلى الرغم من أنني سامحتكَ من أول اعتذار، فإن كرامتي وأنوثتي سقَطتَا مني يومها على أرضك، سقَطتَا وتحطَّمتَا، وسمعت صوتهما الذي ظل يتردد لأيام داخل رأسي!

وعلى الرغم من أنَّني امرأة لم تُخلق لكي تنكسر كرامتها أمام رجل، حتى لو كانت تعشقه بجنون، فإنني سامحتك وتناسيتُ أفعالك ولم أخرجها من درج الذَّاكرة إلى أرض حبِّنا مرةً أخرى!

***

استجمعتُ نفسي وعلى الرغم من هشَاشتي المرعبة وقفتُ على قدميَّ ومسحتُ عينيَّ ولطمتُ وجهي بالماء البارد..

وعلى الرغم من عجزي الكبير فتحتُ حقيبتي وأعدتُ ترتيب ملامحي وتمرير أحمر شفاهي على شفتيَّ..

وعلى الرغم من حزني وخذلاني وضعفي أخفيتُ آثار موتي وخطوط هلاكي وبقايا دماري وبشاعة إحساسي!

ثمَّ فتحتُ الباب بثقة لترتطم الموسيقى بوجهي وبقلبي وليذكرني صوت المغني الرئيسي أنك وصلت وأنك هنا.

أسمع جيدًا الآن وأنا أتمشى في هذا الممر الضَّيق لقبك هذه اللَّيلة..

«مولاي السلطان»

لا يتردد في الصُّراخ بها ولا ينسى أن يُلقي بصوته الحاد بلقب حبيبتك وزوجتك..

«لالة العروسة»

أقتربُ، أقتربُ منكما وأصادف في طريقي بعض النساء اللواتي يترددن على دورة المياه للاطمئنان على زينتهن وملامحهن وخصلاتهن المتطايرة، ويرتطمُ جسدي ببعض المراهقات اللواتي يركضن ويقفزن بسعادة ويتحدثن عن أكثر الرجال وسامةً هذه الليلة.

قالت إحداهن:

- هل رأيتن العريس؟ إنه أجمل شابٍّ في هذا الحفل، رأيته حين نزل من السَّيارة وأمسك يد زوجته، إنها محظوظة جدًّا!

وقفتُ أتنصتُ عليها وتمنيت لو استطعتُ أن أسألها أكثر عنك.

قالت أخرى:

- أنا أعجبني صديقه الذي كان يقود سيارته، إنه وسيمٌ جدًّا.

لتسأل أخرى بفضول:

- إنه مهندس، أليس كذلك؟ هذا يعني أن جميع أصدقائه مهندسون.

لتقول أكثرهن جمالًا وجرأة:

- أنا أعجبني الشَّاب الطويل ذو الملامح الخشنة والفك العريض، هو أيضًا صديقه، لقد اقترب منه بمجرد نزوله من السيارة ووقف لكي يحييه.

وكنتُ سأسألها:

– هل حتى أيمن اللعين يجد مُعجبات في هذا البلد؟

قالت الشابة الأولى:

- العروس أيضًا جميلةٌ جدًّا، على الرغم من الطرحة التي تُغطي وجهها فإنَّني استطعت أن ألمح ملامحها الأوروبية الجميلة، وشعرها الأشقر الناعم.

قاطعتها الفتاة التي تمسك بها:

- هيا بسرعة، يجب ألا نفوت طقوس التمر والحليب.

اقتربتُ بهدوء من بوابة القاعة ووقفتُ أسند رأسِي وجسدي إلى الحائط وأنتظر أن تتحرك امرأة عجوز تقف أمامي وتصفق بحرارة وتحجبُ عني رؤيتك.

على الرغم من كل ذلك الضَّجيج والهتاف والموسيقى، فإنَّني لم أسمع شيئًا وأنا أنظر إلى وجهك الجميل وعينيك الشَّاردتين وحاجبيك المقطبين..

لم أسمع أي شيءٍ حين أمسكت طرحتها تلك ورفعتها لكي تنظر إلى وجهها أمام كلِّ الناس والكاميرات سوى صوتك وأنت تخبرني أنك تحبني كثيرًا.

لم أسمع أي شيءٍ وأنت تأخذ كأس الحليب اللعينة تلك لكي تضعها بهدوء بين شفتيها سوى تذمرك حين سكبتُ عليك الحليب ولم أشعر بشيء سوى بقلبي الذي يقفز مرحًا بداخلي وكأن كل ما تعيشه معها كان معي..

معي أنا فقط!

وضعتُ يدي على صدري حين جاء دورها لتختار لك حبة التمر وتضعها بغنج داخل فمك، وابتسمتُ بحسرة حين مضغتها وابتلعتها بسهولة وحين تحركت تفاحة آدم في عنقك معلنة أن المهمة تمت بنجاح.

أردتُ أن أبكي حين شربت من كأس الحليب من يديها وحين مسحتْ شفتيك بمنديل، لكنني لم أستسلم لرغبتي ولمشاعري، وارتديتُ ثوب القوة واللامبالاة، أردتُ أن أهرب بعيدًا، تمنيتُ لو أنني لم آتِ وأنني لم أسمع ما سمعت.

تمنيتُ لو أنني أبكي الآن في غرفتي وألعن حظي وقدري الذي أبعدني عنك وأنام وأنا أفكر أنك لي وحدي، أنك مهما فعلت لتعاقبني وتلومني إلا أنك لي، وقلبك واهتمامك وحبك لي وحدي!

تمنيتُ لو استطعتُ الهرب دون أن تنتبه لوجودي، لكنك رفعت رأسك في اتجاهي ولمحتَ طيفي وعيني ولهفتي!

رأيتُ أنا أيضًا صدمتك وتخبطك وحيرتك، ورأيتُ رغبتك في الركض نحوي، في سؤالي السُّؤال نفسه الذي لن يمل أحد من طرحه عليَّ اليوم.

رأيتُ محاولتك لخطو خطواتٍ في اتجاهي، ورأيتُ كيف منعتك «النَّكافة» المسؤولة عن كل تحركاتكما الليلة وكيف طلبت منك أن تحضنها لكي يلتقط لكما المصور صورًا تاريخية!

ركضتُ نحو غرفةٍ واسعة لتغيير الملابس واختبأتُ لكي لا أرى طقوس زواجك بها، وبكيتُ كثيرًا حين سقط مني ثوب القوة البالي..

بكيتُ أمام تلك المرأة التي كانت تغير طرحتها، ظلت تراقبني وشعرتُ أنني أعيش أسوأ يوم في حياتي، أسوأ من كل شيء مر عليّ من قبل.

وأقنعتُ نفسي أنني بتجاوزي لهذه الليلة ولهذا الحفل فلن أضعف ولن أبكي أمام أي شيء مرة أخرى لما بقي من حياتي.

مررتُ يدي على شفتي وتذكرتُ شفتيك، وعطرك، وأنفاسك، تذكرتُ ذلك الحبَّ في عينيك وذلك السحر في نظراتك، تذكرتُ كم أحبك وكيف جعلتني أصدق أنك تحبني، وتذكرتُ كل ما فعلته لكي أتركك لها بهذه البساطة، تذكرتُ كلَّ شيء ولم أستطع أن أنجو، ومع أنني أحبُّك، ومع أنني أريدك، إلا أنني قررت أن أغادر وحاولتُ أن أدعي لك من قلبي أن تصبح سعيدًا معها، رغمًا عني، لأنني أحبك..

وأنتَ ستكون سعيدًا مع أنثى مثلها..

أنثى جميلة، قوية، لا تخاف من كل شيء مثلي، تقود السَّيارة وتتسلق الجبال وتسبح في عمق المحيط.

أنثى واضحة، مفهومة، تعرفها وتعرفك، تحبها وتحبك، ولا يلطخ غموضها ومزاجيتها وماضيها علاقتكما، أنثى أفضل مني، وأجمل مني، وأقوى مني، وأقرب إليك مني.

سأخرج من حياتك بسرعة، كما دخلت إلى حياتي بسرعة!

لكنني كنت أحتاج إلى جوابٍ..

أخرجتُ هاتفي من حقيبتي، وتفاجأت بعدد اتصالاتك بي؛ عشرون اتصالًا لم أسمع ولا واحدًا منهم!

عشرون اتصالًا منذ ثلاث دقائق فقط!

ورسالة وحيدة: «أين أنت؟»

مسحتها، مسحت اتصالاتك الغريبة بي في حفل زفافك، ومسحتُ رسالتك المجنونة عن مكاني، ثم اتصلتُ بأيمن.

ردَّ بعد صمت طويل:

- ماذا؟

قلتُ له بصوتٍ مخنوق:

- أيمن، تعال أرجوك إلى غرف ملابس النساء.

فقال بسخرية:

- ولماذا سأفعل ذلك؟

قلتُ له بتوسل:

- أرجوك يا أيمن، هذا ليس وقت خصامنا، أنا أحتاج إليك.

ثمَّ أقفلتُ الخط وأنا أشكُّ في أنه سيأتي إلى امرأة أخبرته قبل دقائق أنه عديم التربية!

لكنه جاء..

حتى إنه جاء بسرعة أكثر مما تصورت!

دخل حين فتحت له الباب ثم أغلقتُه بالمفتاح.

- ماذا تريدين أيتها المجنونة؟ هل ستقتلينني هنا؟

قال بسخرية.

قلتُ له بحزن:

- أنا آسفة على ما حدث قبل قليل، لكنك جرحتني أيضًا.

بلعتُ ريقي ثم أضفتُ:

– سأسألك سؤالًا واحدًا أتمنى أن تجيبني عنه بصراحة.

- ماذا؟ ماذا؟

قال وهو يزيح سترة بذلته السوداء ويفتح أزرار قميصه العلوية.

قلتُ له بتردد:

- هل كان نبيل يُحبُّ مريم قبل أن يعرفني؟

نزل عليه سؤالي كالصَّاعقة، احمرَّ خدّاه الممتلئان ولمس أنفه بتوتر ثم قال:

- من قال لك هذا؟

- أرجوك يا أيمن أخبرني، أنتم درستم معًا وكبرتم معًا، هل هذا صحيح؟

قال وهو يبعد نظراته عني:

- نعم.

قاومتُ رغبتي المجنونة في البكاء وقلتُ له بخوف:

- أنت لا تكذب عليّ، أليس كذلك؟

لكنه ظل صامتًا وهادئًا.

أضفتُ:

- ألم يقع حقًّا في حبي؟ هل فعل كل هذا لكي ينساها؟

قاطعني بقسوة ثمَّ قال:

- ذلك اليوم في المقهى حين جاء لكي يحدثك، كان يريد فقط أن يجعلها تشعر بالغيرة.

ثم فتح الباب وغادر!

***

أردتُ أن أهربَ دون أن يراني أحد..

دون أن ينظر إليَّ أي شخص، أي شخصٍ حتى أنت!

ركضتُ، ركضتُ بسرعة لكن رقص النِّساء في السَّاحة التي تتوسط القاعة منعني، رقصهن وازدحامهن ومرحهن أثقلن خطواتي..

ركضتُ وأنا خائفة، وحائرة، ومستنجدة، ألتفتُ إلى يميني وإلى شمالي بحذر وكأنني أتجنبُ خطرًا سيدمرني..

وددتُ لو أصبحتُ شفافة أو غير مرئية، تمنيتُ لو امتلكت الكريما التي كان يدهن بها جيري جسده ليصبح غير مرئي أكثر مما تمنيتها في طفولتي.

وصلتُ قرب الباب وبلهفة قفزتُ، لكن امرأة أنيقة أوقفتني بإعطائي وردةً بلاستيكية تحمل بعض المسكَّرات على أغصانها..

شكرتها ثمَّ استمررتُ في سباقي، وكان الضجيج لا يزال يتدفَّقُ ويعبرني ويغمر كلَّ جزء من جسدي!

توقفتُ عند عتبة الباب أمام قوس الورد ثمَّ استدرتُ لكي ألقي نظرةً أخيرة على تلك الفوضى، فسقطت عيناي داخل عينيك وأنت تقتربُ مني، وسقط قلبي في فراغ عميق..

رفعتُ فستاني وقفزتُ بكل ما أوتيتُ من قوة على تلك السلالم القليلة، سمعتُ صوتك الغاضب يصرخ باسمي، اسمي الذي تعرف جيدًا أنني لا أحبه..

- ندى، توقفي.

لا أعرفُ كيف طلبتَ مني أن أقف بعد كلِّ ما حدث ويحدث، لا أعرف لماذا لحقتَ بي، لماذا أصررتَ على تمزيق ما بقي من كبريائي؟!

ركضتُ بحذائي الشتوي العالي وتجاوزتُ نصف الحديقة المظلمة وكدتُ أصل إلى الباب الخارجي لكنني تعثرت، والتوى كاحلي، وسقطتُ على وجهي!

- حبيبتي!

صرختَ وأنت تقتربُ مني، وتنحني لكي تطمئن عليَّ..

زحفت يدك نحو وجهي، وارتطمت أنفاسك على أنفاسي، وغمرني قلقك وحنانك كأنَّني فعلًا حبيبتك!

كررت تلك الكلمة الغبية وقلت لي:

- حبيبتي، هل أنتِ بخير؟

وداعبتَ بيدك وجهي ومسحتَ قطرات الدَّم التي تدفقت من أنفي.

يدك الباردة التي تحمل خاتمًا فضيًّا يلمع بابتذال، اليد نفسها التي حملت خاتمي لعدة أشهر!

دفعتُ يديك فجأة وأنا أشعر بألم في أنفي وألم أكبر في كاحلي.

- ندى!

أضفتَ بجفاء.

قلتُ لك وأنا أحاول الوقوف:

- ابتعد عن طريقي.

أمسكتَ مجددًا يدي لكي تُساعدني فضربتها بغضب وقلت لك:

– لا تلمسني!

– ندى، أنا آسف.

- ابتعد عني.

وقاطعتْ أمك كالعادة لقاءاتنا، وحواراتنا، وحبنا:

- نبيل، ماذا تفعل هنا؟ هل جننت؟! عد إلى الدَّاخل.

- أمي!

تركتكما في حربكما المعتادة حولي وحاولتُ الهرب لكن كاحلي كانت تؤلمني أكثر فأكثر.

لمحتُ أيمن الذي كان يشرب سجائره تحت شجرة كبيرة، استدار في اتجاهي وراقبني للحظات فقط قبل أن يتخلص من بقايا سيجارته ويقترب مني قائلًا:

- لماذا تعرجين؟

قلتُ له بغيظ:

- ليس من شأنك.

قال وهو يضع يديه على رأسه:

- سُبحان الله! وكأنكِ لست المرأة نفسها التي كانت تتوسل إليّ قبل قليل لكي أساعدها.

- اتركني في حالي يا أيمن.

- تعالي معي، سأوصلك إلى البيت.

قال ذلك وهو يلحق بي.

- لا، شكرًا.

- أنتِ لن تجدي سيارة أجرة في هذا الوقت، فلا تحاولي.

قاطعتنا بصوتك وأنت تلحق بنا:

- ندى، انتظريني.

فصحتُ بك:

- لا تنادِني ندى، لا تلحق بي، ألا تفهم؟!

قال لك أيمن:

- نبيل، عد إلى الدَّاخل، سأوصلها.

قلتَ له:

- لا تتدخل.

فقلتُ لأيمن وأنا أسند جسدي المنهك إليه:

- أرجوك أسرع يا أيمن.

لا أعرف كيف وثقتُ بك، كيف سلمتُ الكلمة السرية لقلبي لرجل، أنا التي كسرها أكثر رجل تحبه كل أنثى، أنا التي تذوقتُ الغدر من حبيبي الأول؛ من أبي، كيف سمحتُ لنفسي بالتورط مع رجل غريب حين تخلى عني أكثر رجل كان عليه أن يتمسك بي؟!

أتتخلى أنت عن أنثى أخرى من أجلي الآن بينما لم يستطع أبي أن يتخلى عن امرأة أخرى من أجلي ومن أجل أمي؟

أيكون حبك لي أكبر وأعظم من حبِّ أب لطفلته الوحيدة؟

***

اتصلتُ بأمي التي لا تعرف مكاني الحقيقي، اتصلتُ بها وقلتُ لها إنَّني سأبقى مع صديقتي هذه اللَّيلة، لكنها تحفظُ صوتي وتُميز حزني وتشمُّ بسرعة رائحة هزائمي،

قالت بحزن:

- ذهبتِ يا ندى إلى ذلك الزفاف!

- أمي!

- لماذا فعلتِ ذلك؟

- أمي، أرجوك!

- حسنًا تعالي الآن.

- لا أُريد يا أمي، لا أريد أن آتي إلى ذلك البيت ولا أريد أن أنام هذه الليلة في تلك الغُرفة.

- وأين ستذهبين؟

- سأذهب إلى المستشفى.

- لماذا؟

- لأن إيمان هناك، هيا يا أمي سأغلق الهاتف.

- لا تؤذي نفسك يا صغيرتي.

قالت ذلك بحزن قبل أن أغلق الهاتف وأسمح لدموعي بالهطول ولحزني بالتَّدفق.

توقف أيمن بعد عشرات الدَّقائق أمام المستشفى الجامعي، قلت له بصوتٍ منخفض ومنكسر:

- شكرًا لك.

وحاولتُ فتح الباب والنزول، لكنني فشلت..

نزل وفتح لي الباب ثمَّ قال:

- انتظري هنا سأحضر كرسيًا.

اتَّصلتُ بإيمان لكنها ردَّت على اتصالي برسالة مُسجلة: «أنا آسفة الآن، أنا مشغولة جدًّا، اتصل في وقتٍ لاحق».

- دكتورة ندى، كيف حالك؟

تمتم الموظف المكلف بنقل المرضى وهو يقرب كرسيًّا متحركًا مني.

- بخير يا سيد محمد، شكرًا لك، خذني إلى قسم الأشعة أرجوك.

- حسنًا يا دكتورة.

ظلَّ أيمن يتمشى معنا حتى وصلنا إلى قسم الأشعة، قلت له فجأة:

- شكرًا لك يا أيمن، أنا بخير الآن يمكنك الذهاب.

قال وهو ينحني ويضع سترته على كتفي:

- انتهى الآن استغلالك لي وتريدين طردي، لا تقلقي، أنا لستُ هنا من أجلك، سأجري فحصًا على نفسي، ربَّما نقلتِ لي عدوى من حزنك وبؤسك هذا.

لكنه لم يستطع أن يجعلني أضحك!

ولم يتركني قط تلك الليلة حين لم تستطع صديقتي أن تجد لي وقتًا وسط مناوبتها الكثيفة، جعل من مقعد سيارته سريرًا من أجلي، ومن سترته غطاء لي، ثم قضى الليلة على كراسي المستشفى الباردة والموحشة.

تلك الليلة فقط نسينا كل خصوماتنا وحروبنا وكُرهنا لبعضنا وأصبحنا أصدقاء، ولو لـ 12 ساعة فقط..

وأحببتُ جدًّا صداقته وتضحيته ووقوفه جنبي حين تخلى عني الجميع، ولو من باب الشفقة والإنسانية..

وهذا يعني أن حتى أقسى البشر يملكون قلبًا وضميرًا وحبًّا داخل قلوبهم.

سألته في الصَّباح حين أيقظني بطرقات خفيفة على نافذة السيارة:

- لماذا تكرهني؟

فقال:

- سبحان الله! بعد كل ما فعلته من أجلك هكذا تشكرينني؟ حسنًا، لا شكر على واجب يا سيدتي!

ثم بدأ يسعل ويعطس بعنف!

***

لَم أنَم!

تقلَّبتُ طوال اللَّيل على مقعد السيارة غير المريح..

أصبحتُ بين ليلةٍ وضُحاها طَريدة وضحية هذه القصَّة بعد أن كنتُ فيها الصَّيَّادة والمجرِمة!

أصبحتُ حائرة، هل أحزنُ على زواج حبيبي بامرأةٍ أخرى أم أحزنُ وأتمزَّقُ لأنه كان حبيبها من البداية وأنا لم أكُن سوى أداة ودواء لكي يعالجا قصَّتهما النَّاقصة والمريضة ويُكمِّلاها بفضلِي؟

لكنك أحببتني، أنا أعرفُ هذا، ولا شيء يستطيعُ إقناعِي بالعكس، وربَّما كلُّ هذا كذب، ربما أمك تكذب عليَّ لكي تُدمرني كما تمنَّت دائمًا، وأيمن؟ لماذا سيكذب؟

هل كُرهه لي سبب كافٍ لكي يفعل بي كلَّ هذا؟

يتقطَّع قلبي داخل صَدري يا نبيل، يتقطع ألَمًا وشوقًا إليك، يتلوى في مكانه كما تتلوى أضحية العيد قبل أن تموت، ينخر الألم أحشائي حِين أُفكِّر أنَّك معها ولها الآن، حين أتخيَّلُ أنك سعيدٌ مع المرأة التي تُحبُّها، حين أفكر أنكَ ستكون لها وحدها منذ هذه اللحظة، وأنك ستمنحها قلبك وعطرك وأنفاسك واهتمامك..

يلتهمني العجز والحزن وأشعر بأنَّني سأفقد وعيي وصوابي حين أفكر أنك لن تكون لي بعد اليوم، لن تتصل بي، ولن تهتم بي، ولن تُمسك يدي، ولن تقبلني..

لا أُصدِّق أنَّني فقدتُك..

ولا أقبل أنَّني أفقد نفسِي ببطءٍ معك!

أغلقتُ عينيَّ وأنا أدخل إلى المستشفى مجددًا أجر قدميَّ نحو مصلحة طبِّ النِّساء، أغلقتُ عيني وعقلي وحاولتُ أن أخدع نفسي بأوهام زائفة وحاولتُ أن أغطي شمس الحقيقة بغربالٍ واسع، ولم أتردد في إقناع نفسي وقلبي أنَّك لا تُحبُّها، ولن تُحبَّها، أنكَ لن تُقبِّلها ولن تُخفيها داخل حضنك حتى تنام، وأنكَ لن تنجح في العبث بشعرها الحريري، ولن تحكي لها حكاية قبل النَّوم، ولن تحضِّر لها الفُطور الفاشل في الصَّباح كما كنت تعدني أن تفعل من أجلي!

أنتَ لن تجعلها تعيشُ في الواقع ما جعلتني أعيشه في أحلامنا معًا..

أليس كذلك؟

- ندى!

قال زميلي الدكتور نوفل وهو يطرق باب غرفة الاستراحة..

فتحتُ له الباب بعد عدة ثوانٍ، راقبني طويلًا قبل أن يسألني بقلق:

- هل أنتِ بخير؟

قلتُ له وأنا أخرج:

- أنا آسفة، تأخرت في تغيير ملابسي، هل نبدأ؟

أوقفني بشدِّي من ذراعي وقال:

- لا لستِ بخير، ألم تنامي جيدًا؟

سحبتُ يدي من قبضته بسرعة وتمتمتُ:

- نعم، لم أنم جيدًا.

- وهل بكيت؟

أضاف بإصرار..

زمجرتُ بنفاد صبر:

- لا، لم أبكِ.

ثم سبقته إلى غرفة الولادة لكي يُحدثني عن الحالات التي استقبلها ليلًا.

وقف أمام المريضة الأولى وقال لها:

- كيف حالكِ الآن يا سيدة رقية؟

- بخير، شكرًا لك دكتور.

قالت ذلك بصعوبة وهي تحاول أن ترفع رأسها، فقال لها:

- لا، لا تتحركي، ابقي على تلك الوضعية.

ثمَّ تفحصني بعينيه قبل أن يقول:

- تعرضت لنزيف حاد بعد الولادة، لتبقى على هذه الوضعية لثلاث ساعات أخرى!

أمسكتُ يدها الشَّاحبة والباردة ثم قلت لها بلطف:

- لا تخافي، سأكون معك طوال اليوم، وإذا احتجت إلى أي شيء لا تترددي في طلبه.

قالت بسعادة:

- شكرًا لك يا بنتي، أسعد الله قلبك.

وكنتُ أريد أن أطلب منها أن تدعي أكثر من أجلي لعلي أتجاوز كلَّ هذه الآلام التي تأكل قلبي!

مررنا على كل النساء وحدثني باهتمام عن كل واحدة منهن ثم توقف أخيرًا أمام سرير شابة سمراء البشرة وقال لي:

- هل تعرجين؟

- لا يا نوفل.

- بلى يا ندى تعرجين وتتظاهرين بأنكِ بخير.

- لا تقلق؛ إنه مجرد حادث بسيط.

قلت له ذلك وأنا أنظر إلى الشَّابة قبل أن أرحب بها:

- مرحبًا.

- مرحبًا.

قال نوفل:

- هذه الشَّابة الجميلة تُدعى إيناس.

ثمَّ بدأ يهمس لي باللغة الفرنسية:

- إنها أمٌّ عزباء، استقبلناها ليلًا وهي تنزف كثيرًا، هي لم تتجاوز بعد السابعة عشر ووالدها أقام القيامة لكي نجهض الطفل، لكنني أنقذته.

تأملتُ مليًّا عينيها الواسعتين وشفتيها الخائفتين، ثم قلتُ له:

- حسنًا، شكرًا لك، يمكنك الذهاب الآن.

- هل أنتِ متأكدة؟

- نعم يا نوفل، هيا اذهب!

جلستُ على حافة سريرها ثم قلت وأنا أمسك يدها وأداعبُ الإبرة المغروسة في عروقها:

- هل أنت بخير؟

ردت بحزن:

- نعم.

دعني أُخبرك أنني نسيتُك وأنا أستمع لها باهتمام، نسيتُ قصَّتي الحزينة معك وأنا أشهد على بُكائها وأنينها وأردتُ فقط أن أُخفف عنها.

قالت بألم وخوف كبيرين:

- أقسم لكِ أننِي لم أفعل معه أيَّ شيء، لم يلمسني ولا مرَّة، لا أعرفُ كيف حدث كلُّ هذا!

قلتُ لها بحزن:

- ألم تُخبرك أمك أنه يجب ألا تقتربي من أي شابٍّ أبدًا؟

ظلت صامتة وهادئة..

أضفتُ بلهجة مُبسطة:

- حتى لو ظننتِ أنه لم تحدث بينكما أشياء كثيرة قد تُسبب الحمل لكنه قد يحدث، يحتاج فقط إلى خلية أنثوية هي البويضة وخلية ذكرية هي الحيوان المنوي، ومجرد التقائهما كيفما كانت الطريقة كافية لتسبب الحمل!

أحنت رأسها خجلًا وسمحت لدموعها بتبليل خدودها.

قلتُ لها مهدئة:

- لا تخجلي مني، أنا لا ألومك ولا أحاسبك، أريد فقط أن تكوني بخير!

قالت بتردد وخوف كبيرين:

- أبي يريد قتل هذا الطفل!

- لكننا لسنا هنا لكي نقتله، لا تخافي.

- هو من ضرب بطني البارحة ضربات عنيفة وسبب لي النزيف، ولو عُدت إلى البيت سيفعل الشيء نفسه مجددًا.

بقيتُ صامتة أراقبُ ألمها ودموعها ثمَّ قلتُ لها:

- لا تخافي، نحن معك.

قاطعتني طالبة أصغر سنًّا:

- دكتورة ندى، حالة مستعجلة.

وقفتُ بآلية ونحن نركض عرفتني على الحالة:

- السيدة في الغرفة 6، شابة في الثلاثين من عمرها، هذه أول ولادة لها، وأنا أراقبُ دقات الجنين لاحظت أنها ضعيفة.

قلتُ لها بينما كنت أفحص الأم والجنين:

- حسنًا، لنُجهز بسرعة غرفة العمليات!

***

لم يكُن من الصَّعب عليَّ أن أعود إليكَ، وأن أفكر فيك، وأن أتساءل عما تفعله بينما كنت أتجهز لفتح بطنٍ جديد وإخراج جنين جديد إلى هذه الحَياة القاسية!

اشتقتُ إليكَ..

إلى لقائنا الأول، إلى لمسة يدك الأولى وبسمتك الأولى واتصالنا الأول..

تعطَّش قلبي إلى حبِّك، وحنانك، ووفائك، وعينيك، وصوتك، وغمَّازتيك.

أردتُ لحظاتٍ قصيرة في سيَّارتك، تذكرني بالليالي الباردة وضوء القمر واشتباك يدي مع يدك وعناق خاتمي مع خاتمك..

أردتُ يا نبيل أن أخرج من هنا وأنا أضع رأسي على كتفك ثم نرحل بعيدًا، في مكان أنت فيه لي وحدي.

حين انتهيتُ من تعقيم يدي وملء روحي وقلبي بك وأردتُ أن أدخل لأبدأ العملية القيصرية قالت إحدى الممرضات:

- دكتورة ندى، هناك شخصٌ في الخارج يريد رؤيتك.

قلتُ لها بلا مبالاة:

– سأبدأ العملية الآن يا زينب.

ردت:

– أنا آسفة، لكنه قال إنه خطيبك السَّابق وإنه يريد أن يراكِ!

وقفتُ أمام المريضة التي تبكي وراقبتُ عيني طبيب التخدير الذي انتهى من تخديرها وأنا أرتجف..

أمسكتُ المشرط بيدين ترتعشان وترددتُ كثيرًا في شقِّ بطنها..

ترددتُ كثيرًا يا نبيل وبدأ قلبي يدق وشعرتُ أنه سيغمى عليَّ!

هل تتذكر كيف غضبتَ حين قلتُ لك إنني قررتُ أن أختار الجراحة كتخصص؟

غضبتَ كثيرًا ورفضت بإصرار قائلًا إنه تخصص لا يناسبُ أنثى رقيقة مثلي.

قلتُ لك بعناد:

– لماذا؟ ماذا تقصد؟ أنني ضعيفة وسأفشل؟

فقلتَ بهدوء:

– لا يا حبيبتي، لكن الجراحة فيها الكثير من التوتر وأنت لا تستطيعين تحمل الكثير من التوتر.

قلتُ لك:

– أنت تحتقرني بهذا الكلام وتقلل من قدراتي، أنا اخترتُ ما أريد منذ مدة وسأثبتُ لك أن فشلي في الامتحانات التطبيقية لن يعني أنني سأفشل مجددًا!

قلت وأنت تمسك وجهي بحنان بين يديك كالعادة حين نغضب ونرفع أصواتنا على بعض:

– كيف تقولين أنكِ اخترت ما تريدين بهذه الطَّريقة؟ وكيف تتهمينني أنَّني أحتقرك؟ أنتِ تعرفين أنَّني أحبك وأفكر بك وأقلق عليك فقط.

حاولتُ التخلص من قبضتك لكنك أضفتَ بغضب لم أعتده منك:

– أنا غاضبٌ منك يا ندى، غاضب، هل أنا لا شيء في حياتك لكي تتجاهليني هكذا بعناد طفلة؟

وأمام صمتي ودهشتي أضفتَ:

– هل ستفعلين أشياء لا أريدها يا ندى؟

قلتُ لك بغضب:

– لماذا تظن أن عليك التدخل في كل شيء؟ هل تدخلتُ أنا في عملك أو دراستك؟ هل خنقتك وحاولتُ فرض آرائي عليك؟

قلتَ بعينين مكسورتين:

– وأنا لم أكن سأرفض الاستماع إليك، لكننا الآن نتحدث عنك وعن مستقبلنا، وأنا خائف، خائف يا روحي وقلق من ندمك على هذا الاختيار.

– سأثبت لك يا نبيل أنني أستطيع، لماذا لا تحاول فهمي؟ هذا كل ما أريده الآن!

– ويداكِ، وارتجافة يديك؟ كيف ستجرين عمليات؟

قاطعتك:

– نبيل، أنا بخير، ولو كنت تحبني ستحبني كما أنا كما تردد دائمًا دون أن تحاول تغييري أو السيطرة عليّ.

كنتُ أعرفُ أنك لا تريد السيطرة عليّ، وكنتُ أعرفُ أنك تحبني وتخشى أن تراني ضعيفة ومكسورة وفاشلة، وكنتُ أعرفُ أنك تخشى فقداني فوافقت مجبرًا على اختياري، وهأنذا اليوم أرتجف ولا أستطيع أن أنقذ حياة أمٍّ في مقتبل العمر وجنينها الذي لم يرَ النور بعد!

***

– دكتورة ندى، دكتورة ندى هل أنتِ بخير؟

قال فجأة طبيب التخدير وهو يقتربُ مني..

قلتُ له بخوف كبير:

– لا، لستُ بخير!

كان قلبي يتقلص بسرعة وأنفاسي تتقطع ويداي ترتجفان، وكان العرق يتصببُ بكثافة من جبيني على وجهي.

دخل نوفل بسرعة إلى قاعة العمليات وهو ينظر إليّ ثم قال:

– ندى، اذهبي إلى الغرفة لكي تستريحي.

– نوفل.

صرخ بغضب:

– ندى، هيا!

انسكبت دموعي وأنا أترك غرفة الرُّعب تلك، أزحفُ ببطء شديد نحو الخارج وأتساءلُ لماذا حدثَ لي كل هذا؟!

لقد أجريتُ مرات لا تُحصى العملية القيصرية في السَّنة الثانية ثم مرات كثيرة هذه السنة، لكن لماذا فشلتُ اليوم ولماذا تحققت تنبوءاتك بخصوصي؟

لماذا؟

سألتني إيمان التي جاءت لكي تراني بعينيها الجاحظتين وتعبها المرسوم على ملامحها:

- حبيبتي، هل أنتِ بخير؟ لماذا تبكين؟

- لا شيء يا إيمان، لا شيء.

- أنا آسفة، لم أستطع أن أرد عليك البارحة.

- لا تعتذري، أرجوك اتركيني وحدي فقط!

تمتمتُ لها وأنا أدخل الغرفة وأستلقي على السرير.

***

الآن، وأنا أتقلبُ على هذا السَّرير وأبكي أدرك سبب خوفك عليَّ، وأفهم سبب رفضك لاختياري وأحزن لأنني هدَّدتُك ولمتك وعاندتك.

أعترفُ الآن يا نبيل أنني كنتُ عنيدةً معك، قاسية معك، أتدلل عليك وأدفعك وأحاول تدمير حبك واحترامك لي.

الآن فقط أفهم سبب كره أمك لي، سبب اعتقادها أنني مدللة، الآن يا حبيبي أتقبل أنها تُشبِّهني بالرجل الذي أنجبني!

نعم، أعترفُ الآن أنني مثله، لم أقدِّر النعمة التي بين يديَّ، أذكر الآن كم مرة ضغطتُ عليك فيها وكم مرة حاولتُ أن أقلل من قيمتك وأتعدى على رجولتك.

أتذكر يا حبيبي أنانيتي وجشعي معك، أعدُّ الآن كم مرة كان يجبُ أن تسحب خاتمك وترميه على وجهي وترحل، ولم تفعل!

هل تذكر تلك اللَّيلة التي أخبرتك فيها أنني سأسهر مع أصدقائي وزملائي وطلبت مني ألا أفعل ذلك؟

قلتُ لك بغضب:

- لكنك تسهر مع أصدقائك!

قلتَ لي بهُدوء:

- حبيبتي، أنا...

قاطعتك:

- ماذا ستقول؟ أنا رجل، وأنا من حقي أن أفعل كلَّ ما أريده لكن أنتِ امرأة، ولأنني رجل فلن تخرجي..

قلتَ بنفاد صبر:

- ندى، ماذا الذي تحاولين فعله الآن؟

فقاطعتك:

- سأذهب يا نبيل.

وبتمرد أقفلتُ الهاتف في وجهك!

لكنك لا تعرف أنني كنتُ غاضبة جدًّا من اهتمامك بمريم ومن بحثك لعمل لها معك في الشركة نفسها التي تعمل بها، كنتُ غاضبة وكانت الغيرة تخنقني ولم أستطع أن أعترف لك بذلك، فقررت أن أعذِّبك بعنادي وجنوني.

كنتُ أشعر بغيرة عادية تشعر بها أي امرأة، ولم أكن أعرفُ أن غيرتي مبررة، وأن المرأة تشعر دائمًا بكل شيء حتى لو كانت لا تعرفه، أليس كذلك؟

اتصلتَ بي مجددًا لكنني تجاهلتك وتزينتُ وتبرجتُ لأقابل أصدقائي وصديقاتي ولأثير إعجاب رجال آخرين غيرك!

أرسلتَ إليَّ رسالة غاضبة: «كيف تقفلين الهاتف في وجهي وكيف تتجاهلين اتصالاتي؟! هل جننت يا ندى؟».

نعم كنتُ مجنونة يا نبيل..

كنتُ مجنونة وقابلتهم في المقهى الذي اتفقنا عليه ضاربةً بكرامتك ورجولتك عرض الحائط..

لكنني كنتُ متوترة طوال الوقت وكنتُ ألقي على هاتفي نظرات سريعة كلَّ ثانية، بحثًا عن اتصال منك أو رسالة عتاب تلومني بها.

لم تتصل بي مجددًا ولم ترسل لي أي شيء، وهو أمرٌ أقلقني كثيرًا وجعلني أقضم أظافري تارة وأنتف خصلاتي تارة أخرى!

قلتَ فجأة وأنت تقف أمام الطاولة التي حجزناها:

- ندى!

رفعتُ رأسي نحوك وتأملتُ نظراتك النارية وعقدة حاجبيك المخيفة!

أمام صمتي وجمودي وتحت نظرات أصدقائي وصديقاتي اقتربت مني أكثر وقلتَ لي بغضب مكتوم:

- تعالي معي!

حين تأخرتُ بضع ثوانٍ في الوقوف أمسكتَ رسغي بعنف وجذبتني نحوك ثم حملتَ حقيبتي الكبيرة وصحتَ بي:

- هيا!

وعلى الرغم من أنك عاملتني بعنف وبقسوة لأول مرة في حياتك، وعلى الرغم من أنني شعرتُ بأن الأرض فُتحت تحت قدمي وسقطت كرامتي بعمق داخلها، فإنني صمتُّ واستسلمتُ لك..

ربما لأنني كنتُ أعرفُ في قرارة نفسي أنني أهنتك قبل أن تهينني، وربما فقط لأنني كنت متفاجئة من ردة فعلك ومن حرارة غضبك الحارقة التي تذوقتها أول مرة!

قال لك نوفل وهو يقف ويدفع الكرسي:

- ماذا تفعل؟ كيف تسحبها هكذا؟

قلت له مهددًا بيدك:

– ما شأنك؟ اهتم بشؤونك وإلا..

– ماذا ستفعل؟ هل أنت مريض؟

صرخ وهو يقتربُ منك..

فدفعتني وأنت تصرخ:

– انتظريني أمام السيارة.

أثقلتُ خطواتي وأنا أراقبُ اقترابك منه وشتمك له ثم توجيهك ضربة عنيفة نحو أنفه كانت كفيلة بجعله يسقط أرضًا!

لم أتصور من قبل أنك قادر على ضرب أيِّ شخص بذلك العنف ولا على تكسير أنف أحدهم والمضي قدمًا وأنت تمسح الدم الساخن العالق على يديك!

كنتُ أظن أنك أفرغت كلَّ غضبك عليه، لكن الغضب الذي تدفَّق منك ونحن نقف أمام السيارة جعلني أخاف منك لأول مرة منذ أن قابلتك، كان غضبًا شنيعًا جعل قلبي يدقُّ بعنف ويدي ترتجفان.

- ما هذا؟ ما هذا؟

صحتَ بهستيرية وأنت تضربُ باب سيارتك العالية بقوة لتمر لكماتك قرب وجهي وتشعرني أنها سترتطم في أي لحظة بملامحي.

كانت أنفاسك السَّاخنة تحرقني وكلماتك الحادة تجرحني:

- هل تظنين أنني رجلٌ يُفعَل به كلُّ هذا؟ هل جعلتكِ بحبي لكِ وباهتمامي بكِ تصدقين هذا؟

قلتُ لك بصوت خائف:

- نبيل.

فرفعتَ يدك نحو وجهي وكأنك تشتهي تمزيقه ثم قلت:

- اصمتي، اصمتي، لن أتحدث الآن لأنني لا أريد أن أجرحك أو أؤذيك، لكن لتعرفي أنني لستُ شخصًا يقبل أن يُعامَل هكذا، ولن أسمح لك بإهانتي بهذه الطريقة ولن أسامحك أبدًا مرة أخرى!

فتحتَ السيارة وارتميتَ على المقعد ثم قلت لي ببرود:

- اصعدي.

اكتفيتُ طوال الطريق بمراقبة يدك التي ترتجفُ، وسحبك لخاتمك ثم دفعه بين الفينة والأخرى وكأنه يخنقك، وكأنك تريد سحبه ورميه بعيدًا والاحتفاظ به في الوقت نفسه!

- دكتورة ندى!

قالت زينب ذلك وهي تدخل الغرفة بهدوء.

- ماذا؟

أجبتها دون أن أرفع رأسي من على الوسادة.

- هل أنتِ بخير؟

- لا، لستُ بخير.

قالت وهي تجلس على حافة السرير:

- خطيبكِ سألني مرةً أخرى عنكِ.

جلستُ وتفحصتها بعينيَّ الدَّامعتين ثم قلت لها بحسرة:

- نبيل ليس خطيبي الآن، لقد تزوج امرأة أخرى.

أحنت رأسها بخجل ثمَّ قالت:

- إنه يقفُ أمام المصلحة ويَطرقُ الباب بين الفينة والأخرى!

- أخبريه أنني لا أريد أن أراه.

قلتُ لها ذلك وأنا أرتمي مجددًا على السرير!

لا أعرفُ كم مرّ من الوقت وأنا أنكمشُ في مكاني وأُفكِّر بك، بمجيئك بعد زفافك لكي تُقابلني!

ماذا أردت مني يا نبيل؟

هل أشفقتَ عليَّ لأنني شاهدت طقوسك معها أم لأنني سقطتُ أمامك وتأذيْتُ بسببك؟

هل أردت فقط أن ترى انهياري دونك وموتي في غيابك وارتجافة يدي بعيدًا عنك؟

أنقذني صوتُ نوفل من شرودي وهو يطرق الغرفة قبل أن يدخل:

- كيف حالكِ الآن؟

جلستُ بسرعة وقلت له:

- لستُ بخير!

جذبني من يدي قائلًا:

- تعالي معي.

ثم تمتم للممرضة ونحن نخرج:

- سأكون على سطح المستشفى، اتصلي بي إذا كان هناك وضع يستحق.

قلتُ له وأنا أبحَثُ بعيني عنك:

- توقف، أين تأخذني؟ لا أريد..

لكنه لم يتوقف، شغل المصعد وظل صامتًا حتى وصلنا إلى السطح.

قلتُ له بتذمر:

- ماذا نفعل هنا؟

قال وهو يأخذ سيجارة من جيب قميصه الملطَّخ بالدماء ويضعها بين شفتيه الداكنتين:

- أنا آتي دائمًا هنا لكي أُنظِّف ذهني.

قلتُ له بسخرية:

- لكنني لا أريد أن أنظف ذهني.

قال:

- هذا ما يبدو، أنتِ تريدين قتل مرضاكِ اليوم!

ثمَّ أمسك يدي وقال:

- لا تبكي، أنا فقط أمزح معك.

سحبتُ يدي بسرعة ثمَّ قلتُ له:

- لقد تزوَّج البارحة نبيل، ولقد ذهبتُ أيضًا إلى زفافه.

ظلَّ صامتًا، وجلس على حافة السَّطح وراقب المدينة من الأعلى وهو يسحب دخان سيجارته.

قلتُ له بدهشة وأنا أجلس إلى جانبه:

– ألن تقول أيَّ شيء؟

– ماذا سأقول؟

– يمكنك مواساتي على الأقل.

– وماذا ستفعل كلمات شخصٍ مثلي من أجل امرأة غبية مثلك؟ امرأة ادعت القوة طوال حياتها لتنهار الآن أمام مريضتها من أجل رجل تركها.

قاطعته:

– نبيل لم يتركني!

– أنتِ لستِ ندى التي أعرفها منذ تسع سنوات، أنت الآن مجرد امرأة بسيطة، غبية، أنهكها ألم حبٍّ كاذب ومشاعر طفولية، لدرجة أنها ترمي بمستقبلها الذي لطالما حاربت من أجله من أجل رجل.

- الحبُّ الذي يجمعني بنبيل ليس حبًّا كاذبًا.

ضحك بعنف ثمَّ سعل سعالًا حادًّا قبل أن يقول هازئًا:

- وكأنكِ لا تسمعين سوى ما أقوله عنه!

- لا أقبل أن تتحدث عنه وعن حبنا هكذا، أنت لا تعرف أي شيء عنا سوى ما تراه.

- لا أعرفُ حقًّا سوى أنه عاملك آخر مرة معاملة سيئة أمامنا كلنا وسمحتِ له بذلك!

- نبيل، لا تتحدث عنا هكذا، أنت لا تعرف ما الذي حدث في الكواليس قبل أن يغضب مني.

قاطعني وهو يشير بيديه:

- أنا نوفل، وأنا أعرفُ حقًّا ما الذي حدث في الكواليس، ماذا لو سمعت كلامك وغادرت المستشفى؟ ماذا لو بقيتِ صامتة تبكين كفتاة لعينة أمام المرأة التي بدأ يموت جَنينها داخل بطنها؟ هل تعرفين كيف عاد إلى الحياة بين يدي طبيب الإنعاش؟ سأخبرك؛ عاد بمعجزة فقط، فقط لأنك قررت أن تبكي في قاعة الولادة على رجل لعين لا يريدك!

وقفتُ وحاولتُ الهرب منه ومن كلماته، لحق بي وقال بغضب:

- لماذا اخترتِ هذا التخصص؟ أعرفُ أنكِ لا تحبينه! لماذا يا ندى؟ هل فشلك في امتحانات السنة السادسة يبرر أن تقضي حياتك حبيسة شيء لا تحبينه؟

- اصمت يا نوفل، أنت لا تعرف أي شيء عني، ثم لماذا اخترت أنت هذا التخصص اللعين؟ منذ متى أصبحت تحب طب النساء فجأة بينما كان حلمك أن تصبح جراحًا للعظام؟

قال وهو يبتعد:

- ربَّما لأنني أريد أن أبقى إلى جانبك فقط!

ثمَّ غادر وتركني هناك أشعر بأنَّني أريد أن أبكي، ولا أستطيع!

***

وقفتُ أراقبُ المدينة من أعلى وأضع يدي على قلبي الذي يرتجف من الخوف.

- لماذا تهربين مني يا ندى؟

سمعتُ هذا السُّؤال وبقيتُ صامتة، جَامدة في مكاني لا أستطيع التَّحرك.

قلت لي بصوتٍ قريب أكثر وغاضب أكثر:

- ماذا كنت تفعلين مع هذا الوغد هنا؟

التفتُّ إليك أخيرًا وأجبرتُ عيني على النظر إليك ثم قلتُ لك بصعوبة:

- لماذا؟ ما شأنك؟ لماذا أنت هنا؟

هاجمت أسئلتي بسؤال آخر:

- لماذا جئتِ إلى الزِّفاف؟

قلتُ لك بكبرياء:

- أردتُ أن أبارك لك!

ضحكت ضحكات مبتذلة وقلت باضطراب:

- لماذا لم تباركي لي إذن؟ لماذا هربتِ من الحفل قبل أن يبدأ؟

حاولتُ الهرب منك ومن تلميحاتك لكنك أوقفتني بشد ذراعي وبصراخك:

- لِماذا تخلَّيتِ عني؟ سأسألكِ هذا السُّؤال لآخر مرة!

ولم أعرف حقًّا ما فائدة هذا السؤال وهذا النقاش الآن.

تأملتُك بفضول، بألم وبتحدٍّ ثم قلتُ لك:

- لأنني لا أحبُّك.

أحسستُ بغضبك، وبخيبتك، وبتعبك، وبسحابة الكِبرياء التي بدأت تغزو وجهك، ومع ذلك بحثت داخل جيب معطفك وأخرجت ورقة منكمشة ووضعتها بين يدي قائلًا:

- وما هذا؟ ما هذا؟ لماذا تكتبين في دفتر الزِّفاف أنَّكِ تُحبينني؟

تأملتها مليًّا بيدين مرتجفتين ثم مزَّقتها ورميتها للرياح التي خطفتها بعيدًا عنا.

قلتَ بنفاد صبر:

- لماذا تفعلين كلَّ هذا؟

وتمنيتُ لو استطعتُ أن أخبرك بكل شيء، تمنيتُ أن أملك الشَّجاعة والجُرأة لأضع قلبي، ومشاعري، وغروري، وكبريائي، وأعمق خدوشي بين يديك، تمنيتُ أن أنظر إلى عينيك اللتين أحبهما وأقول لك كلَّ ما عجزت أن أقوله حتى لانعكاس صورتي على المرآة.

أضفتَ بحسرة:

- هل تجدين صعوبة في الرَّد عليَّ؟

قلتُ لك وأنا أتحاشى النظر إلى عينيك:

– أتمنى لك السَّعادة يا نبيل، وأنت لن تكون سعيدًا معي، والدتك محقة؛ أنا أنانية ولا أحبُّ أي شيء وأي شخصٍ سوى نفسي، غادر أرجوك.

– تعرفين أنني أحبك، وأنَّني لا أريد حياةً دونك يا ندى!

قلتَ ذلك بصوتٍ حزين.

تمنيتُ أن أخبرك أن ابتعادك عني سيقتلني، سيقتل روحي وقلبي وكل أحاسيسي وسيعيشُ فقط جسدي وباقي أعضائي بلا فائدة..

لكنني قلت لك:

- زوجتك تنتظرك.

أضفتَ:

- هذا كل ما ستقولينه لي؟

- نعم يا نبيل، اذهب.

ابتعدتْ عني فجأة نظراتك المعلقة عليّ، وابتعد عطرك وظلُّك عني وشعرتُ بوحدةٍ ساحقة.

قلتُ لك فجأة بلا وعي مني وبلا إدراك:

- هل قبلتها يا نبيل؟ هل أحببتها؟

لكنك لم تتوقف ولم تجب عن سؤالي، لأكتشف بعد رحيلك أنه لم يتجاوز حنجرتي ولم يصل إلى طبلة أذنك وأغشية قلبك، وأنه سيظل حبيسًا داخلي حتى آخر يوم في عمري.

***

كيف يُفترض أن تعيش امرأة بعد أن تفقد الرَّجل الوحيد الذي أحبَّته بصدقٍ في كلِّ حياتها؟

كيف عليها أن تتقبل فكرة أنها ستُقلِّب أوراق حكايتها البالية كلَّ ليلة وتبحث عن اسمه وعطره بين صفحاتها وفصولها بلا فائدة؟

كيف ستعيش وتتعايش وتتجاوز الألم الذي يسكن قلبها وبدأ يتَّسعُ بسرعة في أعماقها؟

كيف تتحمل اتهامات كلِّ من حولها بأنها أنانية؟ تُحب التملك والعناد؟ بأنها شخصٌ غريب الأطوار ومتناقض؟

كيف أقاوم الآن حبي ولهفتي وغيرتي؟

كيف أسامح نفسِي وقدري هذا الذي نسج حول قلبي خيُوطًا وامتصَّ منه الحياة والأمل والحبَّ؟

كيف أغفر لمن دمَّر قلبي وروحي وسلب مني رغبتي في الحَياة وممارسة طقوس الحبِّ كجميع الناس؟

كيف يا نبيل؟

أخبرني؛ كيف أهربُ منك دون أن ألتفت إليك؟

كيف أتجاهلك وأنساك؟

كيف أطفئ الآن هذه النَّار التي تشتعل داخلي وتأكلني؟

كيف أبرر لك أنَّني ألُفُّ حول قلبي حبل الإعدام بنفسي وأدفع الكرسي بكامل رغبتي وإرادتي لأشنقه وأقطع عنه الحياة والأمل؟

***

شغلتُ هاتفي وتأملتُ اتصالاتك طَوال اللَّيل ورسائلك الحزينة..

قرأتها كلها وأنا أبكي، وأنا ألفُظ أنفاسي وأتمنى لفظ قلبي معها.

كتبتَ في الرسالة الأولى «أين أنتِ؟»

وفي الثانية «لماذا لستِ في البيت وأين أخذك أيمن؟»

وفي الثَّالثة «أخبرني أيمن أنه وضعك أمام البيت، فأين ذهبت يا ندى؟»

ثم «حبيبتي، لماذا تفعلين كلَّ هذا؟ ندى، تعرفين أنَّني أحبُّك وأعرفُ جيدًا أنكِ تحبينني، لماذا تُعذبينني؟»

«ندى، افتحي هذا الهاتف اللعين وردي عليّ»

«أنا لم أتزوج يا ندى، لا أستطيع أن أكمل في هذه المسرحية أكثر، أنا أنهيتُ كلَّ شيء..»

«حبيبتي، فعلتُ كلَّ هذا بسبب غضبي الكبير منك ومن تخليكِ عني ببساطة في كل مرة، لطالما شعرتُ أنكِ تحملين حقائبك وأمتعتك وتنتظرين على عتبة حكايتنا فقط لحظة توديعي والرحيل من حياتي، لماذا؟ أنت تحبينني، لكن لماذا؟»

«ألا أستحقُّ جوابًا وتفسيرًا على الأقل؟»

«ندى، لن أقضي حياتي في البحث عنك، ستكون هذه رسالتي الأخيرة، إذا كنت تحبينني فعلًا ولا تريدين خسارتي ردي عليّ، أخبريني بمكانك ولنتحدث أرجوك، إذا كنت لا ترغبين في الحديث ضعي فقط رأسك على كتفي ونامي».

تنهَّدتُ براحة لحظيَّة وتحسستُ قلبي الذي روى عطشه بكلماتك وتلذذ بكل حرف تساقط عليه كالرحمة والذي سأتذكره لآخر يوم في حياتي..

زواجك ليس حقيقيًّا، وحبك القديم لها ليس حقيقيًّا، وحبك الجميل لي هو الحقيقة الوحيدة التي دفَّأت روحي، ومسحت حزني وحيرتي، وأشعرتني بنشوة لا مثيل لها!

حاولتُ أن أكتب لك رسائل كثيرة..

لكنني فشلتُ في بعضها، ومسحتُ أغلبها..

لأرسل لك في النِّهاية:

«أرجوك سامحني، أعرفُ أننِي امرأةٌ لا تليقُ بك، ولا تستحقُّ كل هذا الحبِّ الذي تُخبئه لها داخل صدرك، أعرفُ أن الأسئلة حول تصرفاتي تُتعبُك وترهقك، وأن غموضي ومزاجيتي يهزونك ويرعبونك، أعرف يا نبيل أن تهديداتي بالرحيل كسرتك مرات كثيرة، وأن رحيلي في آخر لحظة حرقك وشوَّه ملامح قلبك، لكنني أريدك أن تعرف أنَّني أحبك، وأنَّني أتمنى لو قابلتك في عالم آخر غير هذا العالم، لو أحببتك في زمن غير هذا الزمن أو في جسد غير هذا الجسد، أحبك كثيرًا وأتمناك دائمًا في دعواتي وصلواتي لكِنني

لا أصدِّق أن أمنياتي ستتحقق، لا أؤمن بذلك، وحين لا نؤمن بشيء لا ننتظر أن يتحقق، أريدك أن تسامحني لأنني أجَّلت رحيلي طويلًا، ما كان عليَّ أن أجمع معك كل هذه الذكريات، وما كان عليَّ أن أغرِق قلبينا في كلِّ هذا الغرام، ما كان عليَّ أن أتعلق بك هذا التعلق المجنون، وما كان عليَّ أن أُعلقك بي وأبني معك أحلامًا زائفة أعرف من البداية أنها لن تتحقق، لكن افهمني، أنا أيضًا أحببتك، أنت شخص جيد جدًّا لدرجة أنني أحببتك بسرعة، ووقعتُ بك بسرعة وبعمق ولم أقدر على الانسحاب، لم أقدر أن أتجنبك، أن أرفض حبك وحنانك، لم أستطع أن أمنع نفسي من التورط معك، ما كان عليّ أن أفعل كل هذا وأنا أعرف أنه لن يكتمل، لكنني جمعتُ قدر الإمكان بعضًا من عطرك وحبك داخل صدري، جمعت ما استطعت من أنفاسك وما سيكفيني من طعم شفتيك، أنا آسفة يا نبيل، لو لم أرحل، كنت أنت سترحل، سأحبك دائمًا وستبقى أنتَ حسرتي الجميلة دائمًا».

***

- دكتورة ندى، دكتورة ندى!

قالها صوت بعيد..

فتحتُ عينيَّ ببطءٍ شديد، اقتحمت أشعة الشَّمس بؤبؤ عيني وهزَّت زينب جسدي الضَّعيف..

- هل أنتِ بخير؟

أضافت بقلق.

جثا نوفل على ركبتيه ووضع يده على رسغي باحثًا عن نبضي ثم قال لزينب:

- اذهبي الآن يا زينب.

رفع جسدي برفق وقال لي وهو ينظر إليّ بحسرة:

- ماذا تفعلين بنفسك؟

قلتُ له وأنا أستعيد وعيي تدريجيًّا:

- ما الذي حدث؟

صاح بغضب:

- لم يحدث شيء يا ندى سوى أنك فقدت وعيك هنا منذ عدة دقائق، ماذا تفعلين؟

أمسكتُ رأسي بين يدي ثم أخرجتُ هاتفي من جيبي وتفحصتُ الرِّسالة الطَّويلة لأتأكد أنَّني أرسلتها لك، بدأ قلبي يضرب بقوة حين اكتشفتُ أنني أرسلتها لك منذ عشرين دقيقة لكنك تجاهلتها بقسوة وكأنها لم تصلك!

- ما هذا؟

صاح نوفل وهو يخطف مني الهاتف.

صحتُ به بجنون:

- نوفل، أعد إليّ هاتفي!

لكنه بدأ في قراءة كلماتي البائسة، قلتُ له بصوتٍ باكٍ:

- لو استمررت في القراءة لن أسامحك لبقية حياتي.

فرمى الهاتف في وجهي وقال:

– أرسلتِ له رسالة طويلة كمراهقة جبانة!

– نوفل، لا تتدخل أرجوك.

– لن أتدخل، هيا اذهبي إلى البيت.

تمتم وهو يقف ويبتعد.

قلتُ له وأنا ألحق به:

– يمكنك الذهاب الآن، أنا بخير وسأستطيع العمل، أنا آسفة لأنك اضطررت إلى العمل يومين متتاليين بسببي.

– غادري يا ندى وارتاحي.

أضاف وهو يرمي جسده في المصعد.

ارتديتُ مجددًا فستاني الباهت ووضعت حقيبتي وسترتي على كتفي ثمَّ خرجتُ من المصلحة وأنا أشعر بأنَّني فقدتُ اليوم في هذا المكان قلبي إلى الأبد!

أنت لا تعرفُ كم مرة تفحصتُ هاتفي بحثًا عن آثارك، بحثًا عن رسالة منك تسألني بها عن كلِّ ذلك الهذيان الذي هذيت به، تستفسرني عن كلِّ تلك الألغاز في كلماتي، لكنك لم تفعل، وأنا لا ألومك، لأننِي أعرفُ الآن أنَّني تأخرت كثيرًا على رسالة كتلك وتبريرات تبدو تافهة، وكاذبة كتلك التبريرات..

تأخرتُ كثيرًا وكان من الأفضل ألا أخبرك في نفس اليوم أنني لا أحبك وأحبك، ما كان عليَّ أن أكتب لك كل ذلك لكِنني ضعفتُ حين قرأتُ رسائلك، مثلما ضعفت حين حدثتني أول مرة، وحين قبلتني أول مرة!

لكنها ستكون آخر مرة أضعف فيها أمام قلبي..

سأجعله يصمت الآن وإلى الأبد.

***

أوقفني رجلٌ أمام المصلحة قائلًا:

- هل أنتِ طبيبة نساء هنا؟

قلتُ له وأنا أتفحص ملامحه المألوفة:

- أنا طبيبة مقيمة، في سنتي الثالثة، لماذا؟

أضاف بتوتر وهو يلمس شاربه الأبيض:

- ابنتي هنا، لقد استقبلوها البارحة بسب نزيف، أريد أن أسأل عن جنينها..

قاطعته:

- هل أنت والد إيناس؟

قال بغضب:

- نعم.

تأملتُ بفضول بشرته السَّمراء، وعينيه السوداوين، وشعره القصير المجعد، ثم ارتجافة يده التي بدأت معها العضلة يسار صدري بالارتجاف.

قلتُ له بثقة مصطنعة:

- إيناس وطفلها بخير.

قال باضطراب:

- أريد أن تجهض ذلك الطفل حالًا.

- ومن أنت لكي تأمرنا بما يجب علينا فعله؟

نظر إليّ بصدمة، أضفتُ:

- هذا مستشفى، نحن ننقذ الأرواح فقط ولسنا قتلة.

قاطعني بصوت عالٍ:

- ذلك الجنين ليس روحًا، إنه سوء ولعنة.

قلت له:

- طفلتك صغيرة، لا بد وأنك لم تجد الوقت لكي تشرح لها ما عليها فعله وتجنبه في هذه الحياة.

قال وهو يغرز عينيه الناريتين في عيني:

- من أنتِ لتحاسبيني؟

- أنا الطبيبة التي تطلب منها قتل روح! هل تعرف أنني يمكن أن أبلغ الشرطة حالًا أنك عرضت حياة ابنتك وحفيدك للخطر؟

بقيَ فاغر الفم يراقبني لعدة ثوانٍ قبل أن يقول:

- أنتِ لا تفهمين، كيف ستنجب ذلك الطفل دون أب؟ كيف سأستطيع أن أرفع رأسي أمام الناس و..

قاطعته:

- يمكنك جمع أمتعتك ذات صباح والهرب، يمكنك تركهم وترك كل شيء خلفك والابتعاد إلى الأبد.

ثم سرَّعتُ خطواتي وابتعدت عنه.

قال بصوتٍ مصدوم وهو يلحق بي:

- ندى!

لكِنني لم أتوقف، ركضتُ بسرعة وارتميتُ أمام أول سيارة أجرة وغادرت!

***

فتحتُ باب البيت..

كانت أمي تجلسُ على الأرض وتُمسكُ ماكو بين يديها..

قلتُ لها بخوف:

- أمِّي، ماذا تفعلين؟

رفعتْ رأسها ببطء واكتفت بالنَّظر إليَّ نظرات حزينة، سالت دمعةٌ كثيفة على خدها المدوَّر ثم حضنتْ جسده الأبيض النَّاعم بقوة.

- أمي!

قلتُها بصوتٍ مرتعش وأنا ألقي بحقيبتي على الأرض وأقتربُ منها.

قالت وهي تنفجر باكية:

- إنه يُغادرنا!

سرتْ قشعريرةٌ باردةٌ من منتصف عمودي الفقري حتى رقبتي، فكتفي، فذراعي حتى وصلت إلى أصابع يدي التي بدأت في الارتجاف!

بدأت دموعي تنسابُ على وجنتيَّ وتصلُ سريعًا إلى شفتيَّ، وهاجمني دوار كان قويًّا لدرجة أنَّني تركتُ جسدي يتهاوى على الأرضية، سقطتُ على ركبتي وقلت وأنا أنتحب:

- أمي، أرجوك قولي لي إن هذا لا يحصل!

- أنا آسفة يا طفلتي، آسفة.

نظرتُ إليه، ومددتُ يدي بتردد نحوه وأنا أُراقبُ عينيه الدَّامعتين، ابتسَم ابتسامةً حزينة وكأنه يعرف أنه سيذهب، وكأنه يريد توديعي أيضًا.

- ماكو، لا تفعل أنت على الأقل، أرجوك!

قلتُ له وأنا أشعر أن ما بقي من قلبي يتمزق، أخذته من حضن أمي ومرَّرتُ شفتيَّ على وجهه النَّاعم وشاربه الطَّويل ثمَّ قبلتُ رأسه وقلت له بصوتٍ باكٍ:

- لماذا تريد تركي؟ ألا يكفيك كلُّ من رحلوا؟ لماذا يا ماكو؟ لماذا تفعل هذا بنا الآن؟

وأجهشتُ بالبكاء..

دموع كثيرة تركت عيني وكأنها دموع على كل شيء وكلِّ شخصٍ فقدته في حياتي.

- أنا آسفة يا حبيبي، آسفة جدًّا، أعرفُ أنَّني أهملتك كثيرًا ولم أكترث لمرضك ولفقدانك شهيتك، سامحني أرجوك، أنت تعرف كم أحبك، أليس كذلك؟

رفع يده القصيرة وداعب بها شفتيَّ، ثم أغمض عينيه وتنهَّد..

هكذا كان يُخبرني أنه يُحبني، هل تذكر؟

هل تذكر حِين أخذناه في نزهتنا خفيةً عن أمك وبدأتُ ألعبُ معه وأقبله لتقول لي:

- ما شاء الله، ما شاء الله! هناك من يُشاركني قبلات حبيبتي وأنا لا أدري.

فقلتُ لك:

- أنت لم ترَ شيئًا بعد، إنه يُخبرني أيضًا بأنه يحبني.

ثم وضعتُ جبيني على جبينه الصَّغير وقلت له:

- أحبك كثيرًا أيها الكائن اللطيف.

ليرفع يده اليمنى كما تعود دائمًا ويمررها على شفتي بلطف.

قلت لك:

- هذا يعني أنه يُحبني أيضًا.

فرفعت حاجبك بغضب وقلت:

- لم أتصور من قبل أن هناك امرأة ستجعلني أشعر بالغيرة من قط صغير.

قلتُ لك وأنا أضعه في حضنك:

- افعل معه الشيء نفسه.

فقلت:

- لا، طبعًا لن أفعل.

صحتُ بك:

- نبيل، هيا!

فوضعتَ جبينك على جبينه بانزعاج وقلتَ له باشمئزاز:

- أنا أحبك أيها القط الغريب.

فرفع يده ورسم على خدِّك الجميل رسمةً خفيفة بمخالبه لتصرخ وأنت ترمي به بعيدًا عنك:

- لقد غرز الغبي مخالبه في وجهي.

فقلتُ لك وأنا أحضنه:

- تستحق ذلك، ظننت أنه غبي لكنه أذكى منك.

فصحتَ به مهددًا:

- سأقتلك أيها اللعين!

لكنك لم تقتله وأصبحتما صديقين مقربين.

فلماذا يموت الآن ويتركني وحدي؟

لماذا تقسو عليّ الحياة هكذا وتسلب مني كل الأشخاص الذين أحبهم واحدًا تلو الآخر؟

لماذا يا نبيل؟

حضنتُ ماكو وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ويودعنا وحضنتني أمي بقوة وهي تبكي، هل تعرف؟ كنتُ أتمنى أن تكون أنت أيضًا معي وتحضنني بينما أعد ضربات قلبه المتسارعة قبل أن تَتوقف!

***

تركتُ أمي تمسح على ظهره ورأسه بعد أن غادرت روحه الجميلة المكان ووقفتُ أنظر إلى الشَّارع من النَّافذة وأتأملُ زخَّات المطر التي بدأت تنزل من السَّماء لتغسل الأرض، ترددتُ كثيرًا قبل أن آخذ هاتفي وأقرر الاتصال بك.

رنَّ هاتفك كثيرًا وتردد صوت النَّغمة التي خصصتها لاستقبال مكالماتك داخل رأسي لثوانٍ بدت لي أعوامًا طويلة، لكنك تجاهلتني، لأول مَرَّة في حياتي، في أكثر لحظاتي ضعفًا وحرجًا!

بكيتُ كثيرًا وأنا أحضنُ هاتفي وأشارك السَّماء حزنها وألمها ولم يستطع قلبي المدمَّر أن يتحمل كلَّ ذلك الألم، فقدانك وفقدان ماكو إلى الأبد، ألا ترى أن كلَّ هذه الآلام كثيرة عليَّ في يومٍ واحد فقط؟

اتصلتُ بعد عدة دقائق بنوفل..

ردَّت عليّ زينب لتخبرني أنه في قاعة العمليات ولا يستطيع أن يردَّ عليَّ.

اتصلتُ بإيمان فأجابتني والدتها لتُخبرني أنها نائمة وأنها لا تريد أن يزعجها أي شَخص!

اتصلتُ في النهاية بأيمن الذي قال:

- يبدو أنكِ اعتدت الاتصال بي، أنا أعمل الآن، ثم نحن لسنا صديقين..

قاطعته:

- لقد مات ماكو يا أيمن!

قال بدهشة:

- مَن ماكو؟

انفجرتُ باكية وأنا أقول:

- قطِّي.

قال:

- ماذا؟

لكنني أقفلتُ الخطَّ في وجهه وعدتُ لأجلس مع أمي، ضممتُ إلى صدري جسده البارد ثم قلت لها:

- ماذا سنفعل الآن؟

لا أعرفُ كم مر من الوقت ونحن نجلس على حالتنا تلك حتى أخرجني صوت جرس الباب من شرودي، وقفتُ بفزع وركضتُ نحو الباب وأنا أقفز وأبتسمُ بمَرارة ظانة أنك ركضت نحوي كما كنت تفعل في الماضي، لكنك لم تأتِ ووجدتُ فقط وجه أيمن المبلل بالمطر!

وعلى الرغم من خذلان قلبي، فإنَّ روحي احتاجت إلى ذلك الحضن الدافئ من شخصٍ يكترث لحالتي ولألمي، فقفزت في اتجاهه وباغتَّه بحضن قوي.

قلتُ له وأنا أبكي:

- لقد أتيت، شكرًا لك.

- اهدئي!

قالها وهو يضع يده المبللة بتردد على شعري!

اهتم بعد ذلك بدفن جسد ماكو في الحديقة المهجورة خلف بيتنا وعاد لتعطيه أمي فوطة وضعها على شعره ثمَّ حضَّرت له كوب شاي ساخن وشكرته قبل أن تتسلل إلى غرفتها لكي تمارس طقوس حزنها على أقرب كائن لها في كل حياتها..

نعم، لقد كان أقرب لها حتى مني، كانت تقضي يومها وليلها بالكامل معه، لكنَّني كنتُ حزينة ومريضة أيضًا فلم أستطع الاهتمام بها ومواساتها.

ظل صديقك الغريب يحدثني عن موت كلبه قبل سنتين ويحاول مواساتي حتى غفوتُ!

***

قلتُ له حين استيقظت:

- لماذا لم تخبر «نبيل» أننا كنا في المستشفى وقلت له إنك وضعتني أمام البيت؟

اكتفى بمُراقبتي بعينيه القاسيتين ثم قال وهو يضع كوب الشَّاي على الطَّاولة:

- وكيف عرفت ذلك؟

- هو أخبرني، لماذا فعلت ذلك؟

قال وهو يقف بتوتر:

- لا أعرف، متى قال لك ذلك وأين؟

قلتُ له:

- هذا ليس مهمًّا، أريد فقط أن أعرف لماذا كذبت عليه.

قال بكلمات سريعة ومتتابعة:

- لكي لا يترك مريم، أعتقد أنني ساعدتك وقمتُ بدفن قطك، سأذهب الآن.

لحقتُ به، وقف ليرتدي معطفه، قلتُ له وأنا ألاحظ ارتباكه:

- لماذا كذبت عليّ إذن وأخبرتني بأنه يحبها وأنه استغلني فقط لكي يثير انتباهها؟

رمقني بصدمة قبل أن يقول:

- لأنه يحبها فعلًا!

- وهل لهذا ألغى زفافهما؟ لهذا جاء اليوم إلى المستشفى ولم يغادر حتى تحدث معي وأخبرني بأنه لا يستطيع العيش دوني؟

تمتم وهو يضحك ضحكات مصطنعة:

- لماذا اتصلتِ بي الآن ولم تتصلي به؟

قلتُ له بغضب وأنا أضرب صدره بكلتا يدي:

- لماذا تكذب يا أيمن؟ لماذا تكرهني؟ لطالما شعرتُ أنك تكرهني وتريد تدمير كلَّ ما يجمعني بنبيل! لماذا تفعل كل هذا؟

أمسك يدي بعنف ودفعني ثمَّ فتح الباب، تمشّى بضع خطواتٍ تحت المطر الخفيف قبل أن يعود في اتجاهي ويقول بقسوة:

- حبيبك وفارسك الذي لن يستطيع العيش دونك عاش علاقة قبل ثلاثة أسابيع مع مريم، اتصلي به واسأليه عنها، هو لن يكذب عليك، أنتِ تعرفين أنه فاشل في الكذب، وإذا مات قطك هذه المرة أو كلبك اللعين أو وجدت نفسكِ كئيبة ووحيدة لا تتصلي بي، بل اتصلي بحبيبك الوفي!

ثم أغلق الباب بعنف وشغل محرك سيارته وغادر!

***

إنَّه يكذب..

إنه يكذب يا نبيل، أليس كذلك؟

قضيتُ عشرات الدَّقائق وأنا أتمشَّى في غُرفتي بتوتر، تارة أقفُ لأقضم أظافري وتارةً أخرى أضع يدي على صدري وأحاول أن أتنفس بصعوبة..

غرقتُ يا نبيل وسئمتُ من كلِّ ما يحصل لي، سئمتُ من كلِّ هذه الأحداث التي تلتفُّ حول قدمي وتريد سحبي نحو القعر، سئمتُ من كل هذا الكذب والخداع، من كلِّ هذا الألم والشَّوق، سئمتُ من بعدك عني، من تجاهلك لي، من لهفتي وغيرتي عليك، سئمتُ من صورتك التي يحاولون تحطيمها في عينيَّ، سئمتُ من الشَّك الذي بدأ يسكن قلبي!

أنا أصدِّقك دائمًا وأثقُ بك وأعرفُ أنك وفيٌّ لي ولحبِّنا وصادقٌ معي، لكن هذا كثير عليَّ..

أشعر الآن بالضَّياع..

هل قمت بخيانتي يا نبيل؟

هل هذا معقول أم أنها إحدى كذبات صديقك الذي اعتاد الكذب والخداع؟

هل أصدقه هذه المرة أم أصدق قلبي المجنون بك؟ أم أنه عليَّ أن أتعلم أخيرًا ألا أصدق أي شخصٍ وأي أحد بعد الآن؟

بلا تفكير وبلا تدقيق أخذت هاتفي واتَّصلتُ بك للمرة الثانية هذا اليوم، وتجاهلتني للمرة الثالثة بعد تجاهلك رسالتي، ثم اتصالي بك لحظة انهياري بسبب موت ماكو، ثمَّ لكي أسألك: هل خنتني؟

تصور؟

أردتُ أن أسألك هل خنتني معها ومزقت قلبي وكرامتي حتى قبل الزفاف الذي ظننتُ أنه يأخذك مني!

لكنك تجاهلتني بقسوة لم أعتدها منك، وتركتني أتألم في مكاني..

لم أستطع أن أقاوم كل تلك الأفكار والهجمات فاتصلتُ بمريم..

تخيل؟

فقدتُ عقلي لدرجة أنَّني اتصلتُ بالمرأة التي تشاركني حبَّك وتحاول سلبك مني لكي أسألها بكل جرأة هل قمت بخيانتي معها!

نعم، إلى هذا الحدِّ كنتُ يائسة وضائعة!

ردت بعدما ظننتُ أنها لن ترد ثم قالت:

- ماذا تريدين؟

قلتُ لها بلا مقدمات:

- هل عشت شيئًا ما مع نبيل؟

ردت بغضب:

- من أنتِ لكي تتصلي بي أو تسأليني هذا السُّؤال؟

قلتُ لها بجرأة:

- أنا حبيبته.

ضحكت بسخرية ممزوجة مع ألم كبير ثمَّ قالت:

- أنت أوقح امرأة رأيتها في كل حياتي، أنت جئتِ إلى زفافي ودمرتِه والآن تقولين لي إنه حبيبك!

قاطعتها:

- أنتِ تعرفين أنه حبيبي منذ البداية، أنت الوقحة وأنتِ تدخلتِ بيننا.

صرخت لتقاطعني بدورها:

- أنتِ مجنونة، ومريضة، ألم تتركيه؟ هل نسيتي ذلك أم أنك تحبين التلاعب به دون أن تفقديه؟ لكن ليكن في علمك أن توقعاتك محقة، حين تركتِه وخذلتِه جاء إليَّ وحدثني كثيرًا عنك وعن كلِّ ما سببتِه له من ألم، ولأنه يعرفُ كم أحبه منذ أيام الجامعة طلب مني أن أحبه وأجعله ينساكِ، نعم يا ندى، نحن عشنا أشياء جميلة لم يعشها معك أنت حتى، ولهذا سيتزوجني مهما حدث، أعتقد أنكِ تعرفين «نبيل» أكثر مني الآن، هو لن يتركني بعد كلِّ هذا، أليس كذلك؟!

ثم أقفلَت الخط في وجهي!

***

تشقَّقت جُدرانُ قلبي يا نبيل تلك اللَّيلة وتراكم الغُبار على أنسجته وضاقت حُجراته وصدأتَ داخلها فاقدًا لمعانك وبريقك وصلابتك!

كنتُ عطشى يا نبيل، وشفتاي جافتين وخَشنتين وعيناي مُبلَّلتين وصدري يغلي كالمرجل، كنتُ ضائعة، أتقلبُ في مكاني وأتلوى وكأنَّني أحتضر مثل ماكو، وكان جلدي يحترقُ وأحلامي تذوب وعطرك يتسرب إلى حلقي ويخنقني كغاز سام..

تشبَّثتُ فقط بماضينا الجميل وواسيتُ نفسي بحبِّك البريء لي وبحديثي الطَّويل معك داخل رأسي!

أغمضتُ عينيَّ وأحضرتُك رغمًا عنك إلى جانبي، وضعتُ يدي على ملامحك المحفورة في قلبي وقلت لك:

- أنت لم تفعل هذا، أليس كذلك؟

فقلت لي:

- تعرفين أنني لم أفعل ذلك.

سحبتُ يدي منك وقلت لك:

- توقف عن الكذب وقل لي الحقيقة!

فصمتَّ وصمتُّ، وقلتُ لك:

- فعلتَ.

فقلت لي:

- أنا لم أخنك ولا مرة ونحن معًا، ما حدث ليس خيانة، أنتِ خنتِني بتركي، أما أنا فقد عشت علاقة عابرة كأي شخص عازب ووحيد ومجروح!

فتحتُ عينيَّ لأجلدك بنظراتي لكن طاقتي وقدرتي لم تستطع أن تُبقيك معي أكثر، وقفتُ وتأملتُ انعكاسي في مرآتي وقلتُ للمرأة الممزَّقة أمامي:

- تحاولين أن تدافعي عنه وتختلقين الأعذار له حتى الآن!

فردت علي:

- أنتِ تعرفين أنني محقة، وكل ما حدث بسببك.

قلتُ لها وأنا أعود لكي أرمي جسدي على سريري:

- دافعي عنه، اشتاقي له، ابكي عليه وسامحيه، لا تصدقي أي شيء سوى أنه نقيٌّ وبريء وأنكِ الوحيدة السيئة والملطَّخة، قدِّسيه في عينيك وقللي من قيمة نفسك كالعادة، إياكِ ألا تفعلي ذلك أيتها الجبانة!

***

- ابنتي، زميلُكِ نوفل يقفُ عند الباب.

قالت أمي ذلك وهي تلمسُ جسدي الممدَّد بلطف.

قلتُ لها وأنا أقفُ بصعوبة:

- كم السَّاعة؟

- إنها الثامنة.

ابتعدت عني وفتحت النَّافذة لتتسلل خيُوط شمسٍ دافئة وتغمر الغرفة.

قلتُ لها:

- هل حلَّ الصَّباح؟

- نعم حلَّ يا بنتي.

كانت تقترب من الباب حين قفزتُ نحوها وحضنتها من خلف ثم قلت لها:

- أنا آسفة لأننِي لم أستطع مواساتك.

- لا تعتذري يا حبيبتي، أعرفُ أنك تتألمين كثيرًا.

قلتُ لها وأنا أمسكُ يديها:

- لقد رأيتُ البارحة ذلك الرَّجل في المستَشفَى.

شعرتُ بحدقة عينيها تتسعان وبقلبها ينتفض من مكانه، حاولت الهرب مني لكِنني قلت لها:

- لم يأتِ من أجلي، بل من أجل ابنته التي ترقد في المستشفى.

قاطعتني:

- وكيف عرفتِ أنه هو؟

- أنا أعرفه يا أمي، أعرفه جيدًا، ربما كنتُ صغيرة لكنني لم أنسَ ملامحه.

قالت بصوتٍ مرتجف:

- هل أنجب ابنةً أخرى؟

- نعم، وهي حامل دون أبٍ!

ضحكت بعنف بينما قفزت من عينيها دمعةٌ غريبة ثم قالت:

- كنتُ أعرفُ أنه فاشلٌ في كلِّ شيء حتى في تربية ابنته، من الجيد أنه غادر ولم يقم بتربيتك.

قلتُ لها بغضب:

- أمي، توقفي، هل تشمتين بهم الآن؟

- طبعًا أفعل ذلك، طبعًا سأفعل.

تمتمت بذلك وهي تبتعد!

وضعتُ معطفي الأحمر على كتفي وفتحتُ الباب، كان نوفل يسند جسده إلى الحائط ويعبثُ بهاتفه، قلتُ له حين رفع رأسه في اتجاهي:

- مرحبًا.

رد وهو يتفحص وجهي:

- صباح الخير، كيف حالك الآن؟

- بخير.

- هذا واضح من تورم عينيكِ وانتفاخ أنفك وشفتيك، لم أستطع أن أرد عليك البارحة وعندما انتهيتُ من العمل كان الوقت متأخرًا فلم أرغب في إيقاظك.

- أنا آسفة لأنك استنزفت كل طاقتك من أجلي.

قال وهو يمرر يده على خدي:

- اطلبي عيني وسأقدمها لك الآن.

دفعتُ يده بغضب وقلتُ له:

- متى ستتوقَّف عن مزاحك الثقيل هذا؟

قال باستهزاء:

- غريبٌ! كيف تفسرين مشاعري التي لم أتردد في إظهارها لك خلال كل هذه السنوات كمزاح ثقيل؟!

كنتُ أريد أن أخبره أنَّني أعشقك وأنني لن أستطيع أن أتقبل مشاعر أيِّ رجل آخر، وأنَّني لم أفكر فيه من قبل سوى كصديق حتى قبل أن أقابلك، ما دامت صديقتي المقربة تعشقه منذ السنة الأولى في الكلية، لكنني صمتُّ وغيرتُ الموضوع ثم قلتُ له:

- لقد مات ماكو البارحة!

قال بحزن وهو يلف يده حول خصري ويجذبني نحوه ليخبئني داخل صدره:

- أنا آسف، ليتني استطعتُ أن آتي البارحة.

كنتُ أريد التخلص من قبضته لكنك كنت أسرع مني، وبدأتَ تُصفِّقُ بيديك بحرارة..

ابتعد عني وراقبناك معًا وأنت تقفُ قبالتنا وتستمر في التصفيق..

قلتَ فجأة بنبرة جارحة:

- فهمتُ الآن، هل تركتني من أجل هذا؟

قال لك نوفل وهو يرفع يده ليضعها على رقبتك:

- تحدث بأدب.

أمسكتَ أنت أيضًا بياقته بجنون وقلت له:

- لا تلمسني أيها الحيوان.

رجوتك كثيرًا أن تَتوقف لكنك تجاهلتني فطلبتُ منه أن يغادر.

فغادر.

كان نوفل يفعل دائمًا كل ما أطلبه منه.

قلتُ لك:

- لماذا أتيت؟

فابتسمتَ بخُبث وقلتَ:

- لماذا اتصلت بي البارحة مرتين؟

قلتُ لك بتلعثم:

- كان مجرد خطأ.

لكِنني مثلما أفك شفراتك وأنت تكذب أعرفُ أنك تستطيع فك شفراتي.

- ماذا تريدين يا ندى؟ هل تلعبين معي؟

قلتُ لكَ وأنا أدفعُ الباب في وجهك:

- أنا آسفة، اذهب، لن يحصل ذلك مجددًا.

دفعتَ الباب بقوة وتمتمت:

- لستُ هنا لكي أتسول منكِ حبًا أو عطفًا أو أسئلة لن أجد لها جوابًا، أنا هنا لأنكِ اتصلت بي مرتين، ولأنني ظننتُ أنك في ورطة وتحتاجين إليّ، ولأنك وحيدةٌ مع أمك دون أبٍ أو رجل لكي يحميكما.

***

هل كنتَ حقًّا لحظتها أسدًا جائعًا مُتعطِّشًا لدِمائي التي تسري داخلهَا؟ أم أنك كنتَ ثعبانًا غدَّارًا مُتلهفًا لحقني بسُمِّ كلماته والتهام ما بقي من كرامتي أمامه؟

تمنيتُ لو أنَّني استطعتُ ألا أبكي..

لكِنني بكيتُ أمامكَ، وسمحتُ لقسوتكَ الجديدة عليّ بإسقاطي أمامك وتحت قدميك، وأنت سمحت لرغبتك في الانتقام مني بالتَّغلب عليك وباستغلال أكثر الأشياء التي تؤلمني لأذيتي!

أنتَ فعلت ذلك أخيرًا في حين كنتُ أقسمُ بكلِّ ما أملك أنكَ لن تفعل بي هذا يومًا ما..

هل تعرف؟ لحظتها فقط اكتشفتُ أنَّني محقة..

محقة في التَّخلي عنك، محقة في كذباتي عليك وفي عدم ثقتي الكاملة بك.

كنتُ محقة من البداية..

عرفتُ لحظتها أنه مهما حدث، يجب على أي أنثى ألا تفرش نقاط ضعفها أمام رجل، مهما أحبته ومهما ظنت أنه أحبَّها، سيأتي ذلك اليوم الذي سيجمعها فيه كلها ليطلقها على وجهها بلا تردد كما يُطلق الصياد رصاصاتٍ طائشة صوب فرائسه..

لقد أتى ذلك اليوم أخيرًا..

كيف فعلتَ ذلك؟

ولماذا فعلتَ ذلك؟

وكيف سمحتُ لك بذلك؟

لا أعرفُ، ولا أتذكر، ولا أريد أن أتذكر.

أعتقدُ أنك استطعت أن تسمع أنيني على الرغم من أنَّني دخلتُ وأغلقتُ الباب في وجهك، وأعتقد أنَّني استطعتُ أن أسمع صرخاتك وضجيجك وطرقاتك العنيفة على الباب..

لن أنسى ذلك اليوم، ولن أنسى تلك اللَّيلة الطَّويلة، ولن أستطيع مُسامحتك على إذلالي وكسري وإهانتي!

هل تعرف؟ كنتُ أنُوح على فقدان حبِّك واحترامك لي، وعلى اختفاء حنانك ورحمتك بي وبقلبي أكثر مما بكيتُ على علاقتك اللَّعينة تلك بمريم!

***

- ندى، نبيل يريد التحدث معك.

قالت أمي ذلك وهي تجلس على حافة سريري.

قلتُ لها وأنا أضمُّ قدمي إلى صدري:

- أمي، أخبرتك ألا تفتحي له الباب، أخبرتك أنَّني لا أريد رؤيته.

دُفع باب غرفتي فجأة ودخلتَ دون أن أسمح لكَ بذلك.

قلتُ لها وأنا أقفز من مكاني:

- لماذا تركتِه يدخل؟

قالتْ وهي تقفُ بدورها:

- تحدَّثا يا ندى.

ثمَّ خرجتْ وأغلقتْ الباب خلفها، وتركتنا وحيدين كالسَّابق بين جدران غرفتي.

قلتُ لكَ دون أن أنظر إليكَ:

- لا أريد التَّحدث معك، غادر أرجوك.

لكنك اقتربت منِّي وكأن كلماتي لا تصلك وقلتَ لي بنبرة ندم وحزن عميقة:

– لن أعتذر منكِ لأننِي أعرفُ أن اعتذاراتي لا تعني لك أيَّ شيءٍ الآن، لكنَّني أريدكِ أن تتفهميني وأن تحاولي وضع نفسكِ مكاني ولو للحظات.

صمتَّ وكأنك تُحاولُ إدخال بعض الهواء إلى صدرك قبل أن تستطرد:

– ندى!

حاولتَ مسك يدي لكِنني ابتعدتُ عنك ووقفتُ أمام النافذة.

أضفتَ:

– ضعي نفسكِ مكاني، أنتِ الآن سعيدةٌ معي ومستعدة لفعل أيَّ شيء لنكون معًا، وأنا، أنا الشَّخص الغريب غير المفهوم، أنا من يبحث دومًا عن حجج لإنهاء كلِّ شيء، تصوري أنني تركتكِ بلا سبب، بلا شرح أو تفسير، قبل أسابيع فقط من موعد زفافنا، تخيلي يا ندى أنني لم أبالِ بك، بمشاعرك وبكرامتك وضربت بكلِّ شيء عرض الحائط فَجأة، بلا مقدمات، تخيلي أنكِ وقفت عاجزة ومصدومة، لا تعرفين لماذا أتصرف هكذا، أنتِ متأكدة أننا نحبُّ بعضنا، لكنكِ لا تفهمين لماذا أتخلى عنكِ باستمرار، تخيلي أنَّني أحرقتُ قلبكِ وأحلامكِ التي بنيناها خلال كل هذه السَّنوات، ودمرتُ كلَّ شيء بلا تردد، ماذا ستفعلين؟ تخيلي أرجوك أنَّني انتظرتُ أن تتزوجي برجل آخر رميتِ نفسك في حياته لكي تنتقمي مني، فأعود إلى حياتك وأشاركك حفل زواجك بلا مقدمات، ماذا لو كتبتُ لكِ أنني أحبكِ على دفتر الزفاف؟ وماذا لو كسرتِ ذلك الشَّخص أمام جميع الناس من أجلي ودمرتِ الحفل وخاصمتِ عائلتك من أجلي، بحثًا عن أمل جديد معي، ثمَّ بحثتِ عني حتى وجدتِني؟ ماذا لو أخبرتكِ بعدها أنَّني لا أحبكِ، وأنَّ زوجكِ ينتظر وأنَّ كلَّ شيء انتهى؟!

صمتَّ تلتقط أنفاسك اللاهثة، ثمَّ أضفتَ بنفاد صبر:

– هل تسمعينني؟ هل تفهمين ما أحاول شرحه لكِ؟ هل أنا لعبة بين يديك يا ندى؟

أمام صمتي وشرودي في السَّماء الغائمة أضفتَ بغضب:

– وفي النهاية أجدك تحضنين هذا الغبي أمام بيتك، ماذا تريدين أن أفكر سوى..

قاطعتكَ:

– لقد حضنني دون أن أسمح له بذلك، فقط لأنني أخبرته أن ماكو مات البارحة.

اقتربتَ مني وقلتَ لي بصدمة:

– هل مات ماكو؟!

قلتُ لك وأنا ألتفتُ لكي أنظر إلى عينيك:

– هل كلُّ هذه العصبية لأنك تركت مريم في الزفاف بسببي؟

بقيتَ صامتًا تنظر إليّ بعدم فهم، أضفتُ:

– لماذا فعلت ذلك إذن بما أنك لا تريد؟

- ماذا تقصدين يا ندى؟

قلتُ لك بتحدٍّ:

- أنت منزعج لأنني دمرتُ زفافكما، لكنَّني لم أفعل أي شيء ولم أطلب منك أي شيء، لماذا لحقت بي وأوقفت زواجك بها؟

أمام صمتك ودهشتك قلتُ:

- هل يُعقل أن تتركها الآن بعد ما عشتماه معًا قبل أسابيع؟

***

شيءٌ ما تغيَّر في نظرتك، في صمتكَ، في عطرك، في شهِيقكَ وزفيرك، في الخُطوة التي أبعدتكَ عني بضعة سنتيمترات، في يدك التي رفعتها لتُداعب شعرك ثم ذقنك ولتُخفي بها ارتجافة رموشك الطَّويلة واحمرار خدَّيْك الأبيضَيْن..

تفاصيلك المتوترة التي تُؤكد خطيئتكَ عذَّبتني، عدم قدرتك على النفي وتكذيب تلميحاتي ألقتني في عتمة لم أستطع أن أخرج منها!

صوتُ أنفاسنا، قلبينا، صورنا المعلقة على الحائط، أشباح قبلاتنا ودموعنا المختبئة تحت جفوننا كادت تصرخ بنا:

- هذه هي نهايتكما، لكنكما تستطيعان تغييرها الآن!

قلتَ بعد لحظات من الصَّمت المخيف:

- من الذي أخبرك بهذا؟

كان سؤالك غريبًا، وغير متوقع، لم أتوقع أن تسألني عمن أخبرني بهذا في هذه اللَّحظة بالضبط، أو ربما فقط رغبتي الملحة في أن تخبرني أنه مجرد كذب هي من جعلت جوابك الذي تؤكد فيه فعلتك بالإيجاب تبدو لي غير متوقعة!

قلتُ لك بصوتٍ مبحوح:

- يعني هذا صحيحًا وليس مجردَ كذب؟!

أدرتَ رأسكَ إلى جهة اليمين ووضعتَ يدك على أنفك المحمر من الخجل وربما التوتر..

قلتَ لي بعد تردد قصير بنبرة هادئة افترستني:

- ما حدثَ كان مجرد خطأ، لم أخطط له ولم أقصده.

«مجرد خطأ»..

كلمتان بسيطتان، غير مقنعتين، يُمكن لأي شخصٍ أن يبوح بهما بلا تفكير ولا تدقيق، بلا أي عناء أو جهد!

أكبر الخطايا والفواحش التي يرتكبها الرجل تبقى مجرد «خطأ»، وحدثٌ بسيط في حياة امرأة لا دخل لها به «لعنة» و«وصمة عار» لن تنمحي من على جبينها مهما حصل.

***

كنتُ أستلقي على الغطاء الذي فرشته في مكاننا المميَّز قرب البحيرة، أقلب الأخبار في هاتفي بيد وباليد الأخرى ألتهمُ بشراسة البانكيك الذي حضَّرته لك، بينما كنتَ أنت تجلس عند رأسي وتعبثُ بخصلاتي..

توقَّفتُ عند خبر صادم هزَّني من الدَّاخل:

«اغتصاب طفلة تبلغ ثلاث سنوات فقط على يد وحش آدمي».

قلتُ لك وأنا أجلسُ وأضعُ الهاتف أمام عينيكَ:

- اقرأ!

أعتقد أنَّكَ قرأت العنوان فقط فقلت لي وأنت تضع الهاتف وتمسك يدي:

– نحن خرجنا لكي نرتاح من ضغط وتوتر العمل، لا تقرئي يا حبيبتي مثل هذه الأخبار.

– لكنها موجودة، هل سنتجاهلها؟

قلتُ لك ذلك باحتجاج.

– موجودة لكن دعينا لا نهتمُّ بها الآن واحكي لي عن أشياء مبهجة.

قلتُ لك مُتجاهلة اقتراحك:

– كيف يُمكن لشخص أن يفعل هذا بطفلة بريئة وصغيرة؟

تمتمتَ:

– هناك الكثير من المرضى النفسيين.

– أنا أرفضُ أن نسميهم بالمرضى، إنهم مجرمون، هل تعرف؟ لو قتلها كان سيكون أرحم لها!

بقيت صامتًا شاردًا، أضفتُ:

– لقد دمر بجريمته هذه قلبها ومزَّق كرامتها وشوه روحها لما بقي من حياتها، لو قتلها بعد افتراس جسدها الصَّغير لأنقذها على الأقل من الجحيم الذي ينتظرها!

قلتَ لي باستغراب:

– يعني ترين أنه كان يجب عليه أن يقتلها؟

– ألم يقتلها هكذا؟ أنا أظن أنه بهذه الطَّريقة قتلها بأبشع الطرق، لأنها ستتمنى أن تموت كلَّ يوم لكي تُنقذ نفسها وستفشل في ذلك، ألا ترى أنه حرمها من أبسط حقوقها، كعيش حياة عادية أو الوقوع في الحبِّ مثلًا؟

– لا أوافقك الرأي.

– لماذا يا نبيل؟ هل ستقبل أنتَ بامرأة تعرضت للاغتصاب في طفولتها؟ هل ستقع في حبها وهل ستستطيع الزواج بها؟

سألتك فجأة وتأملتُ عينيك وصدمتك ثم تلعثمك قبل أن تقول:

– لا أعرفُ يا عيون الغزال، لماذا نتحدث أصلًا في كلِّ هذا الآن؟ تعالي لنختار لونًا جميلًا من أجل طلاء البيت.

لكنني لحظتها لم أكن أريدُ أن أختار لونًا من أجل طلاء البيت بقدر ما أردتُ أن تجيبني عن سؤالي الذي بقي معلقًا بيني وبينك حتى اليوم.

«لا أعرفُ».

يقولون إن لكلمة «لا أعرف» سحرًا خاصًّا يستطيع أن يغزو القلوب كالعصا السِّحرية، ما إن انطلقت من لسان الشخص حتى أعطته كاريزما وجاذبية، لا أفهم حقًّا أين السحر في التظاهر بعدم المعرفة، كل ما أعرفه الآن أنك استعملتها لكي تتهرب من الجواب!

أنت لم تعرف لحظتها هل يمكنك الوقوع في حب امرأة تَمزَّق شرفها بين أنياب الوحش، وربما كنت تعرف أنك لن تفعل لكن وجب عليك أن تبدو لبقًا في التحدث أمامي عن امرأة أخرى، ففضلت التهرب من الجواب.

كانت تلك اللحظة مهمة بالنسبة لي كثيرًا، وكان جوابك وردة فعلك أهم من كلِّ شيء، من البيت الذي تريد شراءه وطلاءه، من الهدايا التي تفكر في تقديمها لي، من المدينة التي سنسافر إليها بعد الزفاف، كانوا أهم من مهري، من فساتين زفافي، من تحضيرات أمي والكعك الذي اختارت أن تصنعه بنفسها، كانوا أهم من كلِّ شيء، وأنت حرمتني منهم ببساطة!

أنت أحببتني كلَّ هذا الوقت ولم تستطع قط أن تقرأ نبرتي وتفهمني وتشعر بي، لَكنني أحببتكَ وفهمتكَ وحفظتكَ، وكنتُ أعرفُ جوابك الحقيقي ومتأكدة منه! كنتُ أثقُ في حبِّكَ العنيف لي إلى أبعد الحدود، لكنَّني لم أثق ولا مرة بشرقيتكَ!

***

قلتُ لك وأنا أرفعُ حاجبي:

– خطأ!

قلتَ وأنتَ تُحاول تغيير الموضوع:

– أنا أحببتكِ فقط، وكنتُ دائمًا مخلصًا لك، ربما أخطأتُ يومها لكنكِ كنت قد خرجتِ من حياتي ودمرتِ خِطبتنا وأحلامنا!

قلت لك:

– «ربما أخطأت؟»، أنت حتى تشك أنه خطأ!

– ندى، أنا لستُ هنا للتحدث عن ذلك الموضوع الذي لا يعني لي شيئًا الآن.

قاطعتكَ:

– يعني لو ارتكبتُ أنا مثل هذا الخطأ ولم تكن في حياتي، نستطيع بعد ذلك أن نعدَّه مجرد خطأ ونتجاوزه وكأنه لم يحدث؟

قاطعتني:

– ندى، أريدكِ الآن فقط أن تسامحيني على ما قلته أمام الباب عن والدك، أنا فقدتُ السَّيطرة على نفسي فقط، بسبب الغيرة، أنا ما زلتُ أحبكِ يا ندى ولطالما شعرتُ بالغيرة من زميلك الغبي ذلك.

لا بد لي من الاعتراف الآن أنَّني كنتُ غاضبة من برودك أمام إثمك وتأكيدك أنه «مجرد خطأ» أكثر من غضبي بسبب ما قلته عن الرجل الذي أنجبني!

أضفتَ بعد صمت طويل:

– هل تُحبينني؟ هل تريدينني في حياتك؟

كان سؤالك غريبًا، وسهلًا، لكنَّني وجدتُ صعوبة في الرَّد عليه!

هل كان عليَّ أن أتمتم ببساطة أنَّني أحبُّك وأريدك كما تتمتم الأرملة حين يسألها الناس هل هي بخير فترد ببساطة «نعم»؟ أم أنه كان عليَّ أن أقول لك «نعم أحبك وأريدك ولكن»؟ أم أكذب ببساطة وأقول لك «لا أريدك بعد اليوم في حياتي» كما فعلتُ من قبل؟

هل كان عليَّ أن أثق بك وأتوقف عن إخفاء أشيائي الصَّغيرة عنك كما كنت تطلب مني من قبل أم أنك أعطيتني درسًا لن أنساه في الثِّقة حين أخرجتَ في أول فرصة سلاحك ووجَّهته صوب قلبي لتطلق رصاصتك التي مزَّقتني وفشلتَ في استردادها بعد ذلك؟

تقتلني كثيرًا هذه الأسئلة وتخنقني!

وعلى الرغم من أنَّني اقتربتُ منك وتأملتُ ملامحك التي أحبُّها ووضعتُ يدي على ذقنك وهمستُ لك بصوتٍ رقيق أنَّني أحبُّك وأريدك، فإنني كنتُ ضائعة، ومرعوبة!

وعلى الرغم من أنَّكَ قبَّلت يدي بشهية كما كنت تفعل في الماضي، فإن ارتجافتها لم تهدأ تلك المرة، وصوت قلبي الذي كان يريد أن ينفجر داخل صدري لم يتوقف عن التدفق نحو أذني.

قلتَ لي بحزن:

– لماذا إذن تتخلين عني؟

فأضفتُ بسرعة وبلا تفكير:

– لأننِي أخافُ يا نبيل، أخاف من الزواج، من الفشل، من أن تفعل بي ذات يوم كما فعل بنا أبي، هل كان صعبًا عليك أن تُخمن أنَّني مُعقَّدة؟

ضممتني إلى صدرك، وضعتَ قبلة على شعري وشممتَ رائحته ثم حضنتني بقوة وقلتَ لي بصوتٍ هادئ:

- أنا آسف يا حبيبتي.

غرزتُ أصابعي في ظهرك وتشبَّثتُ بك كما يتشبث الغريق بطوق النَّجاة..

وعلى الرغم من أنَّني كنتُ سعيدة باستعادة عطرك وحضنك واهتمامك وحبك ببساطة هكذا، فإنَّ عدم قدرتك على قراءتي والشعور بي وتمييز كذبي من صدقي يمزقونني.

كان غريبًا بعد كلِّ هذا الحبِّ أن تصدق أنَّني سامحتك بسهولة هكذا، وأنني تناسيتُ طوفان غضبك الذي استغل نقاط ضعفي وأغرقني، وأنني أهملتُ ذنبك الكبير فيَّ حين عشتُ كلَّ حياتي أشعر بأنَّني قبيحة ومشوهة بسبب ذنب شخصٍ آخر!

***

قالت أمي حين ارتديتُ ملابسي لكي أذهب إلى العمل:

- انتظري يا ندى، خذي هذه الحقيبة، إذا قابلتِ ذلك الرجل ارميها على وجهه وأخبريه أنَّني استطعتُ أن أربي طفلتي أحسن تربية دونه ودون الحاجة إلى ماله أو إنسانيته!

قلتُ لها تحت نظراتك:

- ما هذا يا أمي؟

- هذه النقود التي كان يرسلها ذلك الغبي، لقد خبأتها كل هذه السنين وجاء اليوم المناسب لكي تعود إليه.

قالت ذلك ثمَّ ركضت نحو غرفتها..

سألتَني بفضول وأنا أتفحص الحقيبة السوداء الجلدية:

- ما الذي حصل؟

قلتُ لك مغيرة الموضوع:

- لا شيء، هيا سنتأخر.

في سيَّارتك قلت لي وأنت تمسك يدي:

- هل سامحتِني؟

فقلتُ لك ببرود:

- لا أعرف!

حين وصلنا أمام المستشفى شكرتك على إيصالي ثم نزلتُ، نزلتَ خلفي وقلت لي وأنت تمسك يدي:

- أنا آسف يا حبيبتي، على كلِّ شيء، أعدك أنَّني سأصلح كلَّ شيء.

قلتُ لك بهدوء:

- وأنا آسفة على رحيلي الذي دمَّر الكثير من الأشياء فينا.

ثمَّ دخلتُ..

كان ذلك الرجل لا يزال يمشي ذهابًا وإيابًا أمام مصلحة طب النساء، حين رآني تسمر في مكانه وراقبني بعينيه الذابلتين، اقتربتُ منه ثمَّ بقسوة قلتُ له وأنا أرمي الحقيبة في وجهه كما طلبت مني أمي:

- تسلِّم عليك أمي وتخبرك أنها استطاعت أن تربي ابنتها أحسن تربية ودون حاجتها إليك وإلى مالك.

بقي فاغر الفم غير مصدق لما يسمعه مني..

اقتربتُ من الباب وطلبتُ من الحارس أن يفتحه لي حين سمعته يقول:

- لستُ متفاجئًا الآن أن تتصرفي هكذا بوقاحة، أنتِ كبرت بين يديها ومن المؤكد أنكِ تعلمتِ منها الكثير.

قلتُ له بقسوة:

- هل هذه وقاحة في رأيك؟ ماذا تسمي تخليك عن زوجتك وابنتك وحيدتين في هذه الحياة؟ هل تعرف ما الذي عاشتاه لكي يصبحا قاسيتين هكذا؟

قاطعني:

- لا أحبُّ والدتك، هل تسمعين؟ أخبريها بذلك، وأخبريها أنني لو لم أرحل ولو بقيتُ معها لم أكن سأحبها، أنا لا أحبُّها لكنها فعلت كلَّ شيء لكي تفرقني عن حبيبتي، كالارتماء في حضني مثلًا وحمل طفلة غير شرعية، أنتِ مجرد طفلة غير شرعية، أنتِ اللعنة السيئة التي لم أكن أريدها كما لا أريد الآن تلك اللعنة في بطن إيناس، لكن يبدو أن هذا هو قدري، هل ترين الآن لماذا يجب أن تجهضي ذلك الطفل؟ لأنه لعنة، ولن يحبَّه أحد، ولن يحترمه شخص حتى والده.

كنتُ أضيع، أتلوَّثُ أكثر، لا أعرفُ ماذا أريد، ربما احتجتُ فقط إلى أب، لأول مرة في حياتي، احتجتُ إلى أب حنون، يضمني ويهمس في أذنيَّ الخائفتين بأنه يحبني وبأنه سيحميني من كلِّ شيء، لكنَّني وجدتُ نفسي واقفة أمام وحش آخر، ذي أنياب حادة وعينين شرستين، يسيلُ دمي من بين شفتيه بعد أن مزق لحمي والتهم قلبي بقسوته!

قلتُ له وأنا أبتسمُ ابتسامةً مصطنعة:

- وما ذنبي أنا في كلِّ هذا؟ ما ذنب ذلك الطفل؟ نحن لم نختر كلَّ هذا، أنتم تفعلون بنا هذا..

قاطعني:

- أنتِ خطيئة لم أستطع إيقافها، لكن الأوان لم يفت بعد عليه.

هل أنا حقًّا مجرد خطيئة؟

هل يجوز أن ننعت إنسانًا يملك قلبًا ومشاعرَ وأحاسيسَ بأنه مجرد خطيئة؟

لا، طبعًا لا يجوز..

قلتُ له بثقة:

- أنا لستُ خطيئة، أنا إنسانٌ خلقه الله في أحسن صورة، بينما وجودك على هذه الأرض هو الخطيئة، والدليل أنك الآن واقف بعجز هنا أمامي تطلب مني قتل روح أخرى بعدما قتلتني في الماضي، بينما أبذل أنا كل ما في وسعي لإنقاذ الأرواح!

***

اشتقتُ حين دخلتُ غرفة الاستراحة إلى حضنك، إلى كلماتك الحنون، إلى كتفك القوية، إلى شعوري بالأمان معك، إلى يدك التي تمررها على شعري المجعد وتشعرني بأنني لستُ وحيدة وبأنك معي في كلِّ حالاتي، البشعة قبل الجميلة، تمنيتُ التعري أمامك، كشف مآسي روحي وقلبي لك، أردتُ إخبارك كلَّ شيء وأنا أبكي ومتأكدة أنك ستجد طريقة لكي تخفف عني وتشعرني أنك تحبني أكثر من أي شيء آخر..

لكن هذا لن يحدث بعد الآن.

غيرتُ ملابسي ونفضتُ مؤقتًا كلَّ تلك العواصف بداخلي ثم رميتُ جسدي وقلبي وروحي في عملي، في إفراغ أجساد النساء من تلك الحيوات التي كانت تعشش داخلهنَّ لتبدأ في التأقلم على العيش في هذا العالم الملوث والكئيب، بدءًا من صرخة الحياة الأولى تلك إلى استقبال الأزمات التي ستقويهم، واحدة تلو الأخرى!

لم أتوتر ذلك اليوم في عملي، ولم ترتجف يداي ولا قلبي، ولم أهرب كجبانة أمام حالة حرجة احتاجت إلى تدخلي بسرعة وبعقل نظيف..

لم أتقرب من إيناس ولم أتجاهلها حين طلبت مساعدتي لكي تجلس كما أساعد أي مريضة، لكنَّني لم أشعر بأنها أختي..

لأنها ليست أختي!

رابط الدم ليس كافيًا أحيانًا، والدها اختار ألا نكون إخوة وأخفاني في زوايا الماضي وسماني «مجرد خطيئة»، لذلك فأنا لستُ أختها كما شعرتُ أنه ليس أبي.

نجحتُ في عملي وكنتُ فخورة جدًّا بذلك، وأنقذتُ الكثير من الأرواح ذلك اليوم مع أنها لم تكن مناوبتي، كنتُ فخورة جدًّا، وهذا يعني أنني لستُ خطيئة، أنا امرأة نافعة في هذا المجتمع، قوية، ربَّما تعرضت للكثير من الأزمات التي قد تسقِط أي امرأة لكنني واقفةٌ على قدمي حتى الآن، وفقط لأن جبانًا مثله أنجبني لأنه مارس علاقة غير شرعية بكامل رغبته وإرادته هذا لا يعني أنني خطيئة ولعنة وإثم!

ما دخلي أنا في كلِّ هذا؟

أليس كذلك؟

***

قبل أن أُقابلك يا نبيل كنتُ أنثى مُمزَّقة، مُحطَّمة كمزهرية بورسلان سقطتْ من درج عالٍ وتكسَّرت إلى قطع صغيرة مُتفرقة، شعرتُ دائمًا أنني مُقسَّمة إلى عدة أقسامٍ يستحيل جمعها من جديد..

لكنني قابلتُك، وجمَّعت بعضًا من قطعي وقرَّبتها من بعض، ثم تسربتَ عبر شقوقِي وألصقتَ بعضها بحبِّك وحنانك لي..

لكنني، وكأي شيء مكسور إلى قطع صَغيرة جدًّا، لا يُمكن أن أصبح مجددًا وكأن شيئًا لم يحدث لي!

هل تذكر المزهرية التي كسرتها ليلة خِطبتنا؟

حاولتُ دمج أجزائها في اليوم التالي، لكن أمي قالت لي بنبرة أخافتني:

- هذه المزهرية لا تستحقُّ هذه المحاولة، إنها محطمة إلى أجزاءٍ كثيرة وصغيرة جدًّا مما يجعل دمجها شبه مستحيل.

قلتُ لها بإصرار:

- أحتاجُ إلى بعض التركيز والصَّبر وطبعًا صمغ قوي وسأتمكن من ذلك.

أضافتْ بتحدٍّ:

- صدقيني، حتى لو نجحتِ في ذلك فهي لن تعود أبدًا لما كانت عليه.

- ألا تظنين أنها تستحقُّ فرصة أخرى؟ ألا تستحقُّ أن نحاول إصلاحها وأن نتمسَّك بها بعد أن كسرناها ولم نستطع حمايتها؟

- حاولي، لكنكِ ستفشلين، من سيهتمُّ بمزهرية تحطمت وتشوهتْ حتى لو نجحتِ في إلصاق أجزائها المفتتة مجددًا؟ من سيفعل ذلك يا ندى في حين يمكنه البحث عن مزهرية جديدة، لامعة وبلا خدوش أو شقوق مزرية؟

كانت أمي تتحدث عن المزهرية، وربما عن نفسها وحكايتها، لكنني كنتُ أتحدثُ عن نفسي، عن قلبي، وروحي، وجسدي!

تحدَّيتُ أمي وألصقتُ بعد عدة ساعات كلَّ القطع وأعدتها إلى مكانها على الطَّاولة الزجاجية ثم قلتُ لكَ حين دخلت البيت لكي تزورنا:

- ما رأيك؟ لقد قضيتُ ساعات لكي أرممها؟

فقلتَ لي وأنت تبتسم ببراءة:

- لماذا أتعبتِ نفسكِ يا حبيبتي؟ سأشتري لكِ واحدة أخرى!

كانت أمي مُحقة..

«من سيهتم بمزهرية تحطمت وتشوهتْ حتى لو نجحنا في إلصاق أجزائها المفتتة؟ من سيفعل ذلك في حين يمكنه البحث عن مزهرية جديدة، لامعة وبلا خدوش أو شقوق مزرية؟».

قلتُ لكَ:

- هل ببساطة نتخلى عن شيء نُحبُّه لأنه تحطَّم وأصبح شكله لا يُرضينا؟

قلتَ لي دون أن تفهم مغزى كلماتي:

- لماذا سنحتفظُ بها وهي هكذا بينما يمكننا الحصول على واحدة أجمل؟

أضفتُ:

- يمكن أن تصبح جميلة، أنا أراها جميلة هكذا، وبخاصة أنَّني بذلتُ جهدًا كبيرًا لإصلاحها، والأهم أنَّني أحبها وتعلقت بها واعتدتُها.

ضحكتَ ضحكات خفيفة ثم قلت لي:

- حبيبتي، أنتِ شاعرية وحالمة أكثر من اللازم، إنها مجرد مزهرية!

هل سمعت من قبل عن فن الكينتسوكوروي أو فن الأشياء المكسورة؟

الكينتسوكوروي كلمة يابانية تعني إصلاح الأواني المكسورة ولحمها أو ترميمها بالذهب المذاب وأحيانًا بالفضَّة أو البلاتين، والفكرة الشائعة بهذا الفنِّ هي أن الجمال يكمن في الأشياء المكسورة أو المعطوبة، بمعنى أن الإناء يصبح أكثر جمالًا لأنه انكسر.

كما أن الكسر ليس نهاية الأشياء بالضرورة، بل يمكن أن يكون بداية لبعثها إلى الحياة من جديد.

يعتقد اليابانيون أن الكسر والجبر الذي يلحق بآنية هو جزء من ماضيها أو تاريخها الذي يجب عدم إخفائه، وأن هذه الصدوع أو العيوب هي مجرَّد رمز لحدث حصل في حياة الإناء أكثر من كونه سببًا في تلفه، ويؤمنون أن بعض الكسور قد تجعل الشَّيء أكثر جمالًا مما كان عليه..

لكنكَ لم تكن يابانيًّا، وأمي أيضًا لم تكن يابانية!

نسيتُ أننا عرب، وبالنسبة للعرب «اللي انكسر عمره ما يتصلح»، فقط.

أليس كذلك؟

لَكنني عربية، ومعَ ذلك أؤمن الآن أنني كالأواني المكسورة؛ أستطيعُ ملء فراغاتي وشروخي بمعادن باهظة لأصبح أجمل وأقوى من الأول، ولن يستطيع أحد منعي من ذلك..

سأُبعثُ إلى الحياة مجددًا يا نبيل، سأُبعثُ وسأكون أفضل من قبل، ولن أخجل مجددًا من ماضيَّ وصدوعي وعيوبي التي عاشت معي كلَّ هذا الوقت!

***

صباح موحش قبل عشرين سنة..

كنتُ مغروسةً أمام نافذة غُرفتي وقد ألصقتُ جبيني بزُجاجها البارد، أنتظِر أن يعود أبي ويُخبرنا بصوتٍ مرتفع وسعيد:

- أنا هُنا، ما رأيكما في خدعتي؟

على الرغم من أنه لم يُمارس عليَّ الأبوة من قبل، وعلى الرغم من أنه لم يحملني بين ذراعيه ليُقبلني ولا مرَّة، فإنَّني كنتُ أحبه وأحبُّ وجوده في البيت، كنتُ أشعر كأي طفل أنه لن يحدث لي أيُّ مكروه ما دام هنا مع أنه لم يهمس لي من قبل بأنه يحبني وبأنه سيحميني وأنني يجبُ ألا أخاف من أي شيء ما دام على قيد الحياة!

كنتُ شاردة، أنفخُ على زجاج النَّافذة ثمَّ أرسمُ عليها وجهه العريض وشاربه الكثيف ثم أراقبُ ذلك الوجه حتى أشبع منه لأمسحه من جديد..

قالت أمي وهي تدخل غرفتي وتغطي وجهها بيدها لكي لا أرى البؤس على ملامحها:

- لا تفتحي الباب لأي شخص، سأعود بعد قليل.

- إلى أين تذهبين يا أمي؟ هل سيعود أبي؟

سألتها بخوف لكنها تجاهلتني، لحقتُ بها، وضعتْ جلبابها البرتقالي اللون على جسدها ثم خرجت باضطراب!

عدتُ واستقررتُ أمام نافذتي وقلبي يضرب تلك المرة ضعف الضربات، لم أكن أنتظر فقط عودة أبي، بل عودة أمي أيضًا..

وكم كنتُ خَائفة ألا يعود أي أحدٍ منهما.

دقَّ فجأة جرس الباب، أفزعني وأخرجني من شرودي، ومن كثرة اضطرابي نسيتُ تحذيرات أمِّي وركضتُ نحوه لأفتحه بلهفة ظانة أنهما عادا معًا..

وقفتُ أُبحلق في وجه عمي الشَّاب..

كانت أمي تنعته طوال الوقت بالأخرق لكنني لم أكن أفهم ماذا تعني أخرق، قال بصوتٍ منخفض:

- هل أمك في المنزل؟

قلتُ له:

- لا، لقد خرجت.

قال:

- أرسلني والدك لأنه نسي ساعة يده، هل يمكنك إحضارها؟

سألته بقلق:

- لماذا؟ أين ذهب أبي؟

رد:

- ألم تخبرك أمك؟ سيذهب ولن يعود.

أمسكتُ يده ورفعتُ رأسي أكثر لكي أنظر إلى عينيه الحادتين ثم قلتُ له:

- أليس أخاك؟ أرجوك قل له أن يعود.

رفعني فجأة بين يديه ثم قال وهو يدخل:

- لا أستطيع أن أقنعه بذلك، لا أحد يستطيع!

تجول في البيت وهو يحملني بين ذراعيه، مرَّ على كل الغرف، ثم المطبخ، ودفع باب الحمام بقدمه أخيرًا ثم سألني:

- أين ذهبت أمك؟

أجبته ببراءة:

- لا أعرف، طلبت مني ألا أفتح الباب لأي شخص ثم خرجت.

رد:

- لكنَّني لست أي شخص، أنا عمك وأحبك، أليس كذلك؟

قلتُ له وأنا أحرك رأسي بالإيجاب:

- نعم.

نظراته وهو يلقي بجسدي الصَّغير على الأريكة المستطيلة عالقة بعقلي حتى الآن، عطره وهو ينحني في اتجاهي استقر داخل أنفي ولم يستطع أن يتركه منذ تلك اللحظة..

سني لم يسمح لي آنذاك أن أفهم ما الذي كان يُحاول أن يفعله حين رفع تنورتي الزَّهرية ووضع يده الباردة على فخذي، لكنَّني صرخت وتشنَّج جسدي وبدأ قلبي يطرق بقوة داخل قفصي الصدري الصَّغير..

قال مهددًا بنبرة غاضبة:

- لا تصرخي وإلا...

قاطعه صوت الباب الحديدي الصدئ الذي بدأ يتحرك ويصدر صوتًا مزعجًا، وسحب فجأة يده التي بدأت تزحفُ نحو جسدي النَّحيف وتعبث بأجزائه، قرب وجهه من وجهي ثمَّ همس لي:

- إذا قلتِ لوالدتك ما حصل للتو لن ترَي والدك مجددًا، لكن إذا صمتِّ سأحضره لكِ.

لا أتذكر ما الذي دار بينه وبين أمي التي كانت تبكي، وقفتُ بسرعة واختبأتُ داخل غرفتي ثم أقفلت عليَّ الباب بالمفتاح.

***

عدتُ إلى البيت بعد يوم عملٍ شاق، كانت أمي تجلسُ بتوتر على الأريكة المقابلة للباب وتنتظر وصولي لأحدثها عما فعلته بزوجها اللعين.

قالت بلهفة حين تخلصتُ من حذائي ومعطفي ووقفتُ قبالتها:

- ماذا فعلتِ؟

قلتُ لها وأنا أجلس:

- فعلتُ ما طلبتِ مني.

بدأ صدرها يتحركُ بسرعة، أضافت بصوت مخنوق:

- ثم ماذا؟

قلت لها وأنا أتأمل اضطرابها وقلقها:

- قال إنني وقحة مثلك، وقال أيضًا إنه لا يحبك وأنك قمت بإجباره على الزواج منك وبأنني..

صمتُّ محاولة قراءة تأثير كلماتي عليها قبل أن أضيف:

- قال أيضًا بأنني ابنة غير شرعية، ولعنة، وأيضًا خطيئة..

قفزت من مكانها بفزع ثم قالت:

- إنه يكذب، أنتِ طفلتي الجميلة ولست أبدًا خطيئة!

ثم اقتربت مني ولفت يديها حول رأسي لتضمه إلى صدرها..

كسرتُ الصمت الذي تسرب بيننا ثم قلت لها:

- كيف تزوجتِ وحاربتِ من أجل رجل لا يحبك؟ ليتك تخبرينني كيف، فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك حتى مع الرجل الذي أعرفُ أنه يحبني!

أمسكتْ وجهي بين يديها وقالت:

- سامحيني يا بنتي، كلُّ هذا بسببي، أرجوك سامحيني.

- لا تعتذري مني يا أمي، كوني متأكدة أنَّني أحبك، وفخورة أنك أمي وأنَّني ترعرعتُ بين يديك.

وصدقني يا نبيل لم أكذب عليها، أنا أحبها، ربما ارتكبَت بعض الأخطاء في الماضي، لكننا نخطئ جميعًا، ونستحقُّ كلنا فرصًا أخرى، كما أنني تذوَّقتُ كره الرجل الذي أنجبني، فكيف لا أشكر الله أن أمي على الأقل تحبني؟!

أنت تعرف كم تحبني أمي وكيف كرست حياتها من أجلي!

أضافت فجأة:

- لا أعرف لماذا لا تثقين ولا تحاربين من أجل نبيل، لكنه شخص جيد، ويحبك، ويستحق أن تحاربي من أجله!

***

دخلتُ غرفتي، فتحتُ درج خزانتي وأخرجتُ ساعة ذلك الرَّجل الذي لم يتمكن شقيقه من أخذها له، داعبتُ الحزام الجلدي الأسود ثمَّ مررتُ إصبعي على العقارب المتوقِّفة منذ سنوات طويلة، شعرتُ بدمعة ترتعش بين أهدَابي وأنا أُفكِّر في حياتي، في جروحي العميقة، في خيبتي وألمي ومشاعري الذَّابلة، فكرت في كلماته الخادشة، في حياة أمي المرَّة التي قضتها في وهمٍ كبير، فكرت في كلماتها وفيك..

هل سنلتقي ذات يوم يا نبيل أم أننا سنمضي في حياتنا بعيدَين نحبُّ بعضنا ولا نستطيع الاقتراب؟ هل سأُشفى ذات يوم؟ أم أنني سأستمر في الشعور بلسعات كهربائية حارقة كلما اقتربتُ منك أكثر من اللازم؟

هل سنكون مثل الجسمين اللذين يسيران دائمًا بشكل متوازٍ مع استحالة التقائهما كما تؤكد نظريات الفيزياء الأساسية؟ أم أن التقاءنا ليس مستحيلًا إلى ذلك الحد ونستطيع أن نلتقي في نقطة ما نتيجةً لتأثير جاذبية أحدنا نحو الآخر أو انجذابنا لجسم ثالث في تلك النقطة كما وضح آينشتاين؟

لكنني أُحبُّك، أحببتكَ كثيرًا وعلى الرغم من كلِّ تشوهاتي استسلمت لمشاعري معك ولم أستطع أن أوقفها كما فعلتُ طوال حياتي!

لا أستحقُّك؟ ربما في تقاليدنا وأعرافنا أنا لا أستحقُّك، أنا أُشبه المسخ الآن، وحياتي توصَف لأشباهي بأنها ضائعة، وفرصها في الحبِّ منعدمة، لكنَّني لم أذنب في أيِّ شيء لكي تُحكَم عليَّ هذه الأحكام وتُطبَّق عليَّ بقسوة!

نبشتُ في ذاكرتي عن تفاصيل بعيدة، عصرتها، بلا فائدة، بعض الأشياء والذكريات داخل رأسي ضائعة..

رن هاتفي، ابتسمتُ حين لمحتُ اسمك، وضعت الساعة داخل حقيبتي ثم أجبتك، قلتَ لي بحنان:

– لقد انتهيت للتو من عملي، هل أنت في المنزل يا حبيبتي؟

– نعم.

– حسنًا، استعدي؛ سأمر عليكِ لكي نخرج معًا.

***

قلتُ لك حين مررت أصابعك على شفتيَّ:

– هل تظن أننا سننجح هذه المرة؟

قلتَ لي بحزن:

– سننجح، سأفعل أيَّ شيء لكي ننجح، وسنفعل ذلك إذا وثقتِ بي ولم تتخلي عني.

قلتُ لك حين انتهيت:

– لماذا ستبقى معي وأنا مُحطَّمة بينما يمكنك اختيار امرأة أخرى ليست مُمزقة إلى قطع متفرقة؟

قلتَ وأنت تمسك يدي وتضعها على قلبك:

- لقد أخبرتكِ من قبل أن هذا يغضب عليكِ إذا رددتِ مثل هذه الكلمات البائسة.

أضفتُ بتردد:

- وهل غضب عليك حين كنت مع امرأة أخرى؟

أغلقتَ عينيك وتنهدتَ واحمر وجهك وكأنني ألقيتُ كرة نار في وجهك وليس مجرد عتاب.

قلتَ لي دون أن تنظر إلى عيني:

- نعم غضب مني.

ثم أفلتُّ يدي من بين يديك، سألتك بجرأة:

- شعرتُ دائمًا أن مريم مميزة في حياتك، لماذا؟

فتحتَ عينيك وقلت لي:

- لم أفهم!

فتمتمتُ:

- أنت تحبها، تحميها كما تحميني، تهتم بها، أردتُ دائمًا أن أسألك لماذا تفعل كلَّ ذلك معها وكأنها تتقاسمك معي، لكنَّني لم أفعل، هل تذكر تلك الليلة التي عصيتك فيها؟ ألم تلاحظ أنني تمردت عليك ساعات فقط بعد أن أخبرتني أنك وجدت لها عملًا معك في الشركة نفسها؟!

قلتَ بصدمة:

- هي طلبت مني ذلك.

- وماذا عن خوفك عليها حين تعرضت لحادث؟

- كنت سأفعل الشيء نفسه مع أي واحد من أصدقائي لو تعرض لحادث.

قلتُ لك بتحدٍّ:

- أنت تعرف أنها تحبك.

غيَّرتَ الموضوع:

- كلُّ ما أهتم به أنَّني أحبك، وأنها كانت معي وأمامي طوال كل هذه السنوات، لو أردتُها كنتُ سأكون معها الآن، لذلك غيرتك منها ليست مبرَّرة أبدًا..

أضفتَ فجأة حين أحنيتُ عيني أفكر بكلماتك وأداعبُ يدي:

- وأنتِ تعاملين صديقك الغبي ذلك باهتمام كبير!

- هل تقصد نوفل؟

- نعم نوفل، شكرًا على تذكيري باسمه، فأنا أنساه طوال الوقت!

تمتمتَ بذلك هازئًا..

قلتُ لك:

- نوفل صديق قديم، يشبه الأخ الذي لم أُرزق به، وقد فعل الكثير من الأشياء من أجلي..

قاطعتني:

- نوفل ليس أخاكِ، وأنت أيضًا تعرفين أنه يحبك لكنك تتجاهلين الأمر، مثلما أفعل مع مريم، الصداقة أيضًا رابط قوي، لا نستطيع تمزيقه لمجرد أن طرفًا منها وقع في الفخ وسمح لقلبه بضخِّ مشاعر أخرى غير الصداقة!

قلتُ لك بنفاد صبر:

- هل تعرف؟ حين حضنني نوفل لكي يواسيني على ماكو حاولتُ التخلص منه ولم أشعر قط بالراحة بين يديه، عكسك تمامًا أنت الذي..

قاطعتني:

- لم أكن في وعيي يا ندى.

***

لولا حبُّك يا نبيل لا أعرفُ كيف كنتُ سأبتسم على الرغم من أن قلبي محشُوٌّ بالألم والدموع!

لولا وجودك اللذيذ في حياتي لا أعرف ماذا كنتُ سأفعل تلك الليلة التي قيل لي فيها إنَّني مُجرد خطيئة ولعنة!

لولا وضعك رأسي على صدرك ومداعبة وجنتيَّ لساعات ونحن نراقب النُّجوم المنثورة في السَّماء لا أعرفُ كمية الدموع التي كنت سأذرفها بعد أن أكتشف أن حياتي كلها عبارة عن مأساة، منذ صرختي الأولى حتى صرخة ذلك اليوم التي لم أستطع أن أبعثها في وجه ذلك الرجل الذي يُدعى أبي!

قلتُ لك وأنا أحضنك بقوة:

- قبلك يا نبيل كنتُ شمعة ذائبة، احترق خيطها القُطني بالكامل وتلف وفقدت شكلها وملامحها ونورها وبدأت في العيش في ظلامٍ حالك!

وضعتَ شفتيك على عيني، قبلتها ثم قلتَ لي:

- أنتِ تعرفين أنَّني لا أستطيع التحدث مثلك، لكنني قبلك لم أكن أعرف لماذا أعيش، كنتُ أدرس وأريد الحصول على عمل ما، شراء سيارة، السفر، ولو لم أقابلك لا أعرفُ حقًّا ما الذي كنتُ سأفعله بعد أن أحقق كل ما حلمت به، حتمًا كنتُ سأشعر بفراغ كبير، أليس كذلك؟

تستطيع كلماتك أن تلف قلبي بذراعين دافئتين، وتستطيع يداك أن تحضنني بقوة دائمًا، وتنجح قبلاتك في جعل قلبي يثور، يضطرب، يرغب في الهرب والبقاء في الوقت نفسه!

أنت لا تعرف معنى أن يعبث أحدهم بجسد أنثى دون أن ترغب في ذلك، لا تعرف ولن تعرف كيف تعيش حياتها وهي تشعر بأن كلَّ جزء من لحمها مُلوث، ملطخ بذنبٍ لا دخل لها فيه، لا فكرة لك عن

كيف يتعايش جسدها وعقلها ويحاولان التأقلم مع كل تلك الفوضى داخلها.

لم أحدثك من قبل يا نبيل عن اضطراب الوسواس القهري الذي لازمني منذ سن الرابعة عشرة، حين اقتحمت العادة الشهرية عالمي وأصبحتْ ضيفة ثقيلة على قلبي كلَّ شهر..

هاجمتني يا نبيل منذ تلك الأيام وساوس مزعجة كل يوم بأنني ملوثة، وبأن إثم ذلك الوحش وفعلته التي بدأتُ أستوعبها هي من لوثت جسدي وعقلي، أصبحتُ أخافُ بشكلٍ مرضي من أن أتسخ، أصبحتُ أقضي ساعات في الحمَّام تحت ماء الدش السَّاخن أحاولُ تنظيف وسلق جسدي علَّه يُنظَّف وأمرر عليه كل أنواع المعقمات والمطهرات والمعطرات علَّ رائحته تتغير..

كنتُ أكرر تلك الطقوس، مرارًا وتكرارًا، عشرات المرات حتى أملّ، دون أن أستطيع التوقف، لم أكن أعرف لماذا، لكنني كنتُ أفعل ذلك رغمًا عني، وكأنَّني أستسلم لرغبات ودوافع جامحة لا أستطيعُ السيطرة عليها..

قضيتُ مراهقتي وبعضًا من شبابي حبيسة لذلك المرض، وإن كنتُ لا أعرف أنه مرض، كنتُ أظن أنها لعنة أصابتني بسبب ما حدث لي في طفولتي، لأعرف بعد ولوجي لكلية الطِّب أنه مجرد مرض نفسي بسيط، يصيب الكثيرين، ويتعلق في غالب الأمر بقلق أو اضطراب نفسي أو أزمة في الطفولة يختلقه الجسد والعقل معًا، وأنه من المفروض أن يخفف عني كل تلك العواصف داخل عقلي!

لم أشفَ كليًّا من ذلك المرض يا نبيل، ما زلتُ أستحم بماء ساخن جدًّا، وما زلتُ أقضي دقائق طويلة في تكرار حركاتي المضطربة وأنا أنظف جسدي، ما زلتُ لا أستطيع إيقاف شعوري بعدم الراحة أمام جسدي في المرآة، وما زلتُ أمر بنوبات بكاء حين أشعر بعد الانتهاء من الاستحمام أنني لم أُنظَّف جيدًا، وعلى الرغم من أنَّني ترددتُ قبل سنوات على طبيب نفسي، وعلى الرغم من أنني ابتلعتُ الكثير من مضادات الاكتئاب والمهدئات التي وصفها لي، وعلى الرغم من أن الطبيب حاول أن ينقب عن مشكلاتي الأخرى ويدرس سلوكياتي خلال حصص طويلة، فإنه لم ينجح، ولم يستطع أن يحصل مني على أسرار وخبايا طفولتي ومراهقتي والكوارث التي مرت بي لكي أصل إلى هذه الحالة.

لم أستطع أن أخبر أيَّ شخصٍ بما حل بي، حتى الطبيب النفسي الذي كان يحتاج إلى تلك المعلومات علها تساعده في إنقاذي، وإذا لم نخبر الطبيب النفسي بكل شيء فهو لا يستطيع أن يساعدنا، هو مجرد طبيب يا نبيل وليس ساحرًا أو عرافًا!

أنت لا تعرف يا حبيبي كم كانت فكرة الوقوف أمام رجل ترعبني، تجعلني أشعر بالغثيان وبرغبة جامحة في الهرب إلى أبعد مكان..

أنت لن تعرف كيف يعذبني أي صوت أو عطر ذكوري، وكيف تطفئني نظراته لي، لجسدي، ولشعري، ولشفتي، لا تعرف يا نبيل كيف تحولت إلى رماد في كلِّ مرة يخبرني فيها شخص ما بأنه معجب بي، أنه يريد التعرف عليّ، أنه يحبني أو يعشقني، لن تفهم كيف كان جسدي يتقلص وقلبي يتشنج حين تخبرني

أمي أن ابن صديقة لها أُعجب بي ويريد الزواج بي، كيف كنتُ أسخر منها وأضحك ثم أختبئ في زاوية غرفتي وأبكي وأنا أردد «وحش آخر يريد النيل من جسدي»!

ولا أفهم كيف فعلت أنت ذلك وجعلتني أتمرد على ماضيَّ وجروحي ووساوسي القهرية، لا أفهم حتى الآن كيف لم تتسرب رائحة نتنة وكريهة إلى أعماقي حين وقفت أمامي وجعلتني أُعجب بك، أنا التي كانت ترفض إعجاب أي شخص بها، لا أستوعبُ كيف لمست يدي، وكيف سمحتُ لك بذلك، أنا التي كنتُ أنتفض من مكاني إذا حاول أحدهم أن يسلم عليَّ ويضع يده في يدي، لا أفهم يا نبيل كيف غيرتني وكيف لم أهرب منك ولم أشمئز منك!

كيف أحببتك بقلب شبه ميت؟ وكيف لمستك ببشرة محروقة ماتت أعصابها ولم تعد تشعر بأي شيء؟ وكيف استعدت حواسي وضربات قلبي والفراشات التي تضرب جدران معدتي معك؟

كيف نجحت وحدك في ذلك؟ وكيف عالجت بعض أمراضي؟ وكيف أصبحت أنا أيضًا أتلذذ بحبِّك؟ وكيف يضج شعور جميل في قلبي وأنا معك؟ وكيف أشتهي تقبيلك والمكوث في حضنك لأطول مدة ممكنة؟!

لا أجد أجوبة عن أسئلتي سوى أن الحبَّ يصنع المعجزات، وأنت معجزتي، وأنت فارسي ومنقذي، وأول وآخر رجل سأقع في حبه طوال حياتي!

***

حين وصلتُ إلى المصلحة في اليوم التالي لم أجده هناك مع أنَّني كنتُ أريد التحدث معه.

قالت لي الممرضة وأنا أدخل:

– لقد أنجبت الأم العزباء!

ركضتُ بسرعة نحوها، كانت تبكي بحرقة وهي تحضنُ ذلك الجسد الصَّغير الملفوف في فوطة بيضاء وتقبل رأسه بهدوء..

لا أعرفُ لماذا لم أنسحب فحسب وقررتُ الدخول والجلوس على الكرسي عند رأسها!

قالت بحزن وهي تتأملني:

– دكتورة، انظري، إنها غريبة، تشبه القطن!

مددتُ يدي بتردد نحو وجهها ثم قلتُ لها:

– هل هي فتاة؟

– نعم.

ردت وهي تبكي، وتمتمتُ لنفسي في أعماقي: «فتاةٌ أخرى، ولعنة أخرى، وخطيئةٌ أخرى».

قطعت حبل أفكاري قائلة:

- لقد زارني أبي ثم قال لي إنه سيعطيها لعائلة ما!

أحنيتُ رأسي ثم قلت لها:

- هل يُحبُّك والدك؟

قالت وهي تسمح لدموعها بالتدفق أكثر:

- نعم، يحبني كثيرًا، كانت علاقتنا جيدة جدًّا حتى حصل هذا.

نسِيتُ للحظة أنَّني الطبيبة وأنها المريضة، وأنه لا حق لي بإنشاء قنطرة عاطفية معها، سألتها بفضول:

- وماذا عن والد الطِّفلة؟

قالت بخجل:

- إنه زميلي في الثانوية.

- إيناس.

قال فجأة صوتٌ قوي..

التفتُّ فلمحتُ وجهه المتجهم وعينيه القاسيتين، لكنه لم ينظُر في اتجاهي، وضع كيسًا بلاستيكيًّا يحتوي على بعض المستلزمات ثم قال لي دون أن ينظر في اتجاهي:

- هل أستطيعُ البقاء مع ابنتي؟

- نعم سيدي.

قلتُ ذلك وأنا أقف وأقتربُ من مريضة أخرى.

سمعته بصعوبة يُخيرها بين إعطاء الطفلة وبين تزويجها من رجل يكبرها بثلاثين سنة!

حين انتهى من مقابلتها ركضتُ خلفه وقلتُ له:

- توقف.

- ماذا تريدين؟

رد بغضب.

أخرجتُ ساعته القديمة من جيب بلوزتي وقربتها من وجهه ثم قلتُ له:

- لدي شيء يخصك.

أمسكها بيدين مرتجفتين ثم تأملني بفضول.

قلتُ له:

- حين جاء شقيقك ذلك اليوم ليأخذها، فعل أشياء أخرى ونسيها، لذلك فقد احتفظت بها كلَّ هذا الوقت لكي أعيدها لك حين تعود، لكنك لم تعد!

لم يقُل شيئًا، اكتفى بالعبث بها وبالنَّظر إليَّ بشك.

- ألن تسألني لماذا لم يجد الوقت لأخذها؟

سألته، ثم دون أن أنتظر جوابه استطردت:

- لأنه حين جاء لم يجد أمي التي لحقت بك لعلك تعود، وجدني وحدي في البيت، وبينما كان سيبحث عن الساعة ويغادر خطرت بباله فكرة أخرى..

صمتُّ وبلعتُ ريقي قبل أن أضيف:

- قرر مثلًا العبث بجسد ابنة أخيه الوحيدة، أقصد خطيئة أخيه الوحيدة.

علت حمرة خفيفة بشرته السمراء وبدأ يتنفس بغرابة..

قلتُ له:

- ما يؤلمني حقًّا وما لن أسامحك عليه أنَّني صمتُّ ولم أحدث أمي عما فعله بي فقط لأنه وعدني أنك ستعود لو صمتُّ! هذا أكثر شيء مزقني في تخليك الجبان عني.

ثمَّ استدرتُ لكي أبتعد، فقال بصوتٍ مرتفع:

- لقد تعرض لحادث ذلك اليوم، دهسته سيارة وهو عائد إلى بيته وقتلته.

بدأ قلبي يدق بعنف، استدرتُ وراقبتُ ملامحه الغاضبة والحزينة في الوقت نفسه، لم أعرف كيف سأفسر كلَّ ما شعرت به من سعادة وصدمة ثم حزن لأن الله انتقم لي باكرًا جدًّا لِكنني لم أعرف.

أضاف بنبرة مكسورة:

- ولو لم يمت ذلك اليوم كنتُ قتلته الآن يا بنتي.

***

هل تصدق يا نبيل أنه قال لي ابنتي؟

أنا لم أُصدِّق، قضيتُ اليوم وأنا أعمل وأحاول أن أنسى كلَّ ما حدث، ولم أستطع أن أُقنع نفسي أنه قال لي ابنتي، لكنه قالها، ربما فقط لأنه أشفقَ عليَّ، وكم أكره أن يشفق علي أي شخص! وكم أخاف يا نبيل أن تُشفق عليَّ كما أشفقت عليَّ يوم خِطبتنا حين حاولت أمك إذلالي بأبي! وكم ترعبني فكرة أنك معي حتى الآن لأنك تشفق عليَّ!

- كيف حالك؟

سألني نوفل بينما كنتُ أعبثُ بكوب قهوتي في مقهى المستشفى.

- بخير.

قلتُ ذلك وأنا أنظر إليه.

أضاف دون أن ينظر إليَّ:

- رأيتكِ في الصباح في سيارة نبيل، هل تصالحتما؟

- نعم.

ضحك بسُخرية ثم قال:

- غريب!

- ما الغريب في ذلك يا نوفل؟

- ألم يتزوج؟

- لا.

أخرج سيجارة حركها باضطراب بين يديه ثمَّ قال:

- وأنتِ الآن مع شخص كاد يتزوج ثمَّ ألغى الزفاف وترك خطيبته، و..

قاطعته:

- لا تهتم يا نوفل.

قال وهو يضع السيجارة بين شفتيه:

- لم أكن أتصور أنكِ هكذا!

قاطعته إيمان التي سحبت الكرسي وجلست وهي تقول:

- ماذا تفعلان؟

قال لها:

- صديقتك مجنونة، ستعود لحبيبها البائس الذي كان سيتزوج قبل أيام.

قالت له بنفاد صبر:

- لماذا تتدخل؟

- كيف لماذا أتدخل؟ ألن نتدخل؟ ألن نساعدها؟ ألسنا أصدقاءها؟

قاطعته بغضب:

- إنها تحبه، هل تفهم؟ هي تحبه ولا ترى شخصًا آخر غيره، ولو فعل أي شيء بها ستسامحه وستعود له دائمًا، هذا هو الحبُّ.

بقيتُ صامتة أراقبُ غضبها وغيرتها الواضحة من نبرة صوتها المرتجفة وأتأمل غباءه في فهمها أو ربما استغباءه.

أضافت:

- ليتك أنت أيضًا تفهم ذلك، وتتوقف عن الاهتمام بشخصٍ لا يراك، من المفروض أن تتمسك بحبِّ حياتك، لكن الحبَّ من طرف واحد موت، احتراق، وليس حبًّا يستحقُّ المحاربة من أجله لأنك ستخرج في

كل مرة من المعركة خاسرًا، تشبث بحبك عندما يكون حقيقيًّا ومتبادلًا فقط، وغير ذلك اهرب.

قال بصدمة:

- ماذا تقصدين أيتها المجنونة؟

وقفتْ، دفعتْ الكرسي باضطراب ثم قالت:

- ندى تحب «نبيل» ولن يسقط أبدًا من قلبها، ليتك تدرك ذلك وتحاول المضي في حياتك بدل انتظارها، ألم تتعب؟! سبع سنوات، ثم الآن ثلاث سنوات في التخصص، من لم يقع في حبِّك خلال عشر سنوات متى سيفعل ذلك أيها الجبان؟ متى؟

بقي فاغر الفم يراقبها وهي تهربُ بعيدًا عنا ثم قال لي:

- ما بها صديقتك المجنونة؟

قلتُ له وأنا أقفُ بدوري:

- أنت تعرف جيدًا ما بها، وهي أيضًا ستتعب قريبًا ولن تنتظرك عشر سَنوات أخرى!

***

عدتُ إلى قاعة الولادة وتأملتُ جميع النِّساء اللواتي كن يستلقين على ظهورهن ويتألَّمن في صمت في انتظار نزول فلذات أكبادهن وسقوطهم بين ذراعهن، دخلتُ غرفة امرأة شابة هادئة، لا تتلوى في مكانها ولا تتحرك باضطراب، وضعتُ يدي على بطنها المنتفخ وشعرتُ بتقلُّصات عضلات رحمها القوية والسَّريعة التي تنقبض لكي تُسهل عملية نزول الجنين وتمدد عنق الرحم، وهذه التقلصات تسبب دائمًا آلامًا قوية ومرهِقة لا تتحملها أغلب النساء..

قلتُ لها وأنا أمسك يديها:

- ألا تشعرين بالألم؟

ردت وهي تنظر إليّ بعينيها المدورتين:

- بلى.

- لكنك صامتة وهادئة!

- لا نملك في أوج آلامنا سوى الصَّبر، وسيمر كلُّ شيء.

- صحيح، أنا فخورة بكِ.

- شكرًا لك دكتورة.

بقيتُ معها، أحببتُها وأحببتُ قوة تحملها وصبرها وتفاؤلها، أظن أنَّني احتجتُ إلى بعض الدروس الأخرى التي سأتعلمها منها، أنا أؤمن يا نبيل أننا نستطيع أن نتعلم دروسًا مهمة جدًّا من أي شخص، كيفما كان، وأينما كنا...

عندما حان وقتُ خروج الجنين قلتُ للقابلة التي اقتربت مني إنني أريد استقبال ذلك البطل الشَّجاع بنفسي، وعلى الرغم من أنها كانت ولادتها الأولى وعلى الرغم من أنَّني اضطررتُ إلى إخضاعها لشق جراحي على جدار المهبل لكي يخرج رأس الجنين بسهولة دون أن يسبب لها تمزقات، فإنها ظلت صامتة وهادئة واكتفت بإمساك ثوبها الطبي بقوة وعصره بين يدها!

حين أمسكتُ المولود الحديث شعرتُ أنَّني أمسكتُ الحياة بين يديَّ، حين مزَّقتُ حبله السُّري وفرقته عن أمه قلت له:

- لا تخف، ربَّما تظن أن هذا الحبل الذي يجمعكما اختفى، لكن صدقني ما يجمعكما أقوى بكثير من كل هذا، أمك هي الشخص الوحيد الذي لن يتخلى عنك ولو تخلى عنك كل الناس على هذه الأرض.

حين صرخ صرخته الأولى وأخذ نفسه الأول ليملأ به رئتيه شعرتُ أنا أيضًا أنني آخذ نفسي الأول وملأت رئتيَّ بهواء نقي ورائحة طفل لذيذة..

حين وضعته على صدرها وحين شكرتني وهي تبكي أخيرًا وتستسلم لدموع الفرح شعرتُ أن هذا ما أريده، أن هذا العمل وهذا التخصص بعثني إلى الحياة من جديد.

حين اعتذرت مني عن دمها الذي لطَّخ ملابسي الطبية قلت لها بحزن:

- إياك أن تعتذري أو تخجلي مني، هذا عملي، كما أنَّني سعيدة لأنني سبب بسيط لكي تحملي طفلك بين يديك، أتمنى أن يصبح قويًّا مثلك، وأتمنى لكما الصحة والعمر.

حين ابتعدتُ عنهما فكرت كم هي مهنة نبيلة، أن يستأمنك شخص ما على جسده وأكثر مناطقه حساسية، كم هو جميل أن تشعر المريضة بالراحة مع طبيبتها وكاتمة أسرارها! كم هو مريح أن تنقذها وتسهل ولادتها وتعالج بعض أمراضها دون أن تخجل منها أو تشمئز منها أو تحاسبها أو تجلدها على ماضيها أو أخطائها!

***

حين بدأتَ تمل من الخِطبة وتُصر على الزَّواج قررتُ بعد صراع طويل مع نفسي أن أقابل طبيبة نساء لكي تفحصني، صدقني كان القرار صعبًا، مؤلمًا، ومُحطِّمًا، وأتمنى حقًّا ألا تضطر أي امرأة إلى اتخاذه بعد الآن، وأن يتوقف كل هذا التعذيب والجلد والتحطيم في حق النساء.

أتذكر وجه تلك الطَّبيبة المستدير، ونظراتها الثاقبة حين جلستُ قبالتها، أتذكر جيدًا حركات يدها المكررة لكي تُدخل خصلات شعرها المتمردة تحت حجابها لتقرر الخروج مجددًا مسببة لها ضيقًا كبيرًا.

قالت بصوتٍ حاد:

- مما تعانين؟

شعرتُ بقلبي يدُقُّ بقوة وبيدي ترتجفان وبكرامتي على وشك أن تسقط.

قلتُ بتردد:

– أُريد إجراء فحص للعذرية.

قالت بلا تردد وبلا رحمة:

– لماذا؟ ماذا فعلتِ؟

صدقني تسرب صوتها الصَّدئ وحكمها المسبَق عليَّ عبر مسامي وأحرقًا أوردتي ومزّقًا قلبي وكبريائي. أستطيعُ أن أحصي لك عدد الجروح التي سببتها لي، أستطيع أن أصف لك مكانها داخلي وعمقها وخشونة حافاتها، تمنَّيتُ لو استطعت الرد عليها كما تستحقُّ، وتمنيتُ لو وجدتها بعد ذلك لكي ألومها أكثر وأطفئ هذه النار التي تلتهم قلبي حتى الآن، فهي على الرغم من سنها وعلى الرغم من دراساتها وشهاداتها الكثيرة، تبقى شخصًا أميًّا، وقبيحًا، وسيئًا جدًّا، لكنَّني حين عدتُ لكي أحاسبها لم أجدها وأخبرني بعض الجيران الذين يسكنون بجوار عيادتها أنها ماتت، شخصٌ آخر قام بأذيتي، مات دون أن أحاسبه، دون أن يعتذر مني ودون أن أسامحه، مات وأصبحت روحه بين يدي الله وذنبه أيضًا، يجب عليهم أن ينتظروا التحاقي بهم ويطلبوا مني المغفرة، لكنني يا حبيبي صدقني، لن أسامحهم أبدًا، مهما حدث!

***

هل تعرفُ أنها عاملتني وكأنَّني شخص فاسد وسيئ وملوث دون أن تحاول معرفة قصتي أو الأسباب التي دفعتني لأصبح ضحية صغيرة بين مخالبها الطَّويلة؟

هل تعرف كيف مزَّقتني النَّبرة التي أمرتني بها بالاستلقاء والطريقة الغاضبة التي فحصتني بها؟

لقد بكيتُ يا نبيل بسبب نظراتها التي احتقرتني وبسبب لهجتها التي جلدتني وأعدمتني دون محاكمة عادلة، انسابت دموعي على وجهي أكثر حين قالت لي:

– غشاء بكارتك سليم.

أردتُ أن أسألها:

– وماذا عن غشاء قلبي؟ وماذا عن غشاء روحي وكرامتي الذين مزقتِهم للتو؟ ماذا عن هذه الغصة التي كبرت داخل حلقي بسبب معاملتك القاسية لي؟ ماذا عن هذه الحمم المشتعلة داخل صدري؟ وماذا عن الكسور التي سببتِها لي والتي لن أجد لها جبيرة تستطيع تثبيتها في أي بقعة من هذه الأرض الواسعة؟

قالت بصوتٍ بارد:

– هل تريدين شهادة؟

فقلتُ لها وأنا أقفُ:

– لا شكرًا، أخذتُ شهادتي من نظراتك وقسوتك وحكمك المسبق عليَّ، أريدك فقط أن تعرفي أنني هنا اليوم لأننِي تعرضتُ للتحرش في طفولتي.

ثم خرجتُ وعلى الرغم من أنها طلبت من مساعدتها عدم أخذ ثمن الفحص مني، فإنَّني عدتُ ورميتُ الأوراق النقدية على وجهها وقلت لها:

- هل تظنين أنكِ ستشترين الآن ثمن راحة ضميرك؟ لن يحصل هذا، ولا تنسي وجهي أبدًا، تذكريني جيدًا لأننا سنتقابل مرة أخرى، وكوني مستعدة، فأنا لن أسامحك مهما حدث.

كنتُ أعرفُ يا نبيل أن ذلك الغشاء اللعين سليم، لكنَّني ظننتُ أنَّني عندما سأخضعُ لذلك الفحص سأرتاح وسأستطيع أن أتجاوز بعض كوابيسي وعقدي ووساوسي، لكن ما حدث ذلك اليوم سممني أكثر وألقاني في مستنقع لم أستطع أن أخرج منه!

لم أستطع أن أمسح جروحي النازفة ولا أن أضمدها وحدي، وظلت تنزف وتنزف أكثر حتى كدتُ أموت..

ربما لم يتمزق غشاء بكارتي يا نبيل، لكنني كنتُ ممزقة بالكامل وبقي وحده سليمًا في جسدي، لم أستطع يا حبيبي أن أقاوم أكثر تقربك مني وإصرارك على الزواج السريع ولهفتك لكي نجهز البيت، كنتُ مريضة، فقدتُ أجنحتي وسقطتُ لكنك أنت كنت تطير، فكيف كان يجب علينا أن نلتقي؟

أنت في السماء، وأنا تحت الأرض!

لم نكن سنلتقي، فتركتك يا نبيل، تركتك وكسرت لوحة عشقنا الجميلة، ومزقت شريط أغنيتنا الحزينة وتدفق الحزن إلى صدري كما يتدفق النهر بهدوء.

تركي لك كان مؤقتًا، وهروبي منك كان غير مكتمل، وهجري لك زائف، أنا أردتُ فقط بعض الهدوء مع نفسي، أردتُ أن أتصالح معها وأن أتحدث معها وأن أستعيد ثقتها بي، قبل أن أكمل معك كتابة الحكاية..

كل كاتب يتوقف أحيانًا للحظات قبل أن يستمر في الكتابة يا نبيل، لكنك ركضت نحو امرأةٍ أخرى بسرعة وخططت معها بعض الفصول وصنعت معها شبه قصة، وشبه حبٍّ، ولوثت جسدك معها بإرادتك.

أشعر بالاختناق الآن كلما فكرت كم احتقرتُ جسدي البريء وظننت أنه ملطخ بسبب جريمة ارتُكِبَتْ في حقي رغمًا عني، وكيف تُقدس أنت جسدك على الرغم من أنك لطَّخته بنفسك وكيف تتظاهر أنه «مجرد خطأ»! لا يعني لك أيَّ شيء!

***

لأعترف..

أحبُّك على الرغم من ذنبك، وسامحتُك رغمًا عن أنف قلبي وكرامتي، سَامحتُك، وهربتُ إليكَ ضدَّ غروري وغيرتي وأنوثتي، تقبلتُك، وعشقتك وما زلتُ أريدك، ولن أهجُرك مجددًا..

صدِّقني، لن أفعل ذلك هذه المرَّة، ولن أستسلم لمخاوفي ولن أسمح لها بتدميري، ولم أفعل ذلك، حتى عندما طرقت أمك باب بيتنا وقاطعت وجبة عشائنا ودخلت دون إذن ثم وقفت في منتصف غرفة الجلوس

وقالت:

- من تظنين نفسك؟

وضعتُ الشَّوكة التي كنت أمسك بين يدي ثمَّ وقفت قبالتها وقلت لها:

- أهلًا سيدة منى، تفضلي، شاركينا العشاء.

صرختْ بغضب:

- هل تسخرين مني؟

فقلتُ لها:

- لا!

أضافت بتهديد:

- هل تظنين أنَّني سأسمح لابني بالركض وراءك أكثر؟

- لا، لا أظن أنكِ ستسمحين له.

ضحكت ونظرت إلى أمي ثم قالت:

- هل يعرفُ أنكِ رفعتِ يدك لكي تصفعيني في الزفاف؟

صمتٌّ وتمشيتُ بخطوات سريعة نحو غرفتي، أضافت:

- هل تظنين أنكِ قادرة على منافستي؟ هل تعتقدين أنه سيختارك إذا خُيِّر بيني وبينك؟ هل حقًّا تؤمنين أنه سيختارك لكي يفقدني؟

قلتُ لها دون أن ألتفت إليها:

- أنا لستُ منافستك ولم أكُن كذلك من قبل، نحنُ فقط نحب نفس الرجل، أنت أمه وأنا حبيبته، وهو يحبنا معًا، أنتِ يحبك حب الأم كأي شخص يحب أمه ولا يتمنى حياة دونها، وأنا يحبني حبًّا آخر، مختلفًا تمامًا عنكِ، ولا أعرفُ لماذا تشعرين أننا نتنافس أو نحاول الفوز في لعبة ما!

وكأنها لم تسمع كل ما قلت لها فقالت:

- ستتركينه، اتركيه بكرامة قبل أن يتركك.

قلتُ لها وأنا أتقدم نحو غرفتي:

- لن أفعل به ذلك مجددًا.

فقالت بنبرة وبصوتٍ أخافني:

- أنتِ لن تتمني العيش مع رجل دمرت علاقته بأمه.

***

«أين أنت؟ لماذا لا تتصل بي ولا ترد على اتصالاتي؟»

أرسلتُ لك هذه الرِّسالة بنكهة الغضب والعِتاب حين اختفيتَ فَجأة دون سابق إنذار، اختفيت ليومٍ كامل دون أن تزورني أو تتصل بي لتطمئنَّ عن حالي، ودون حتى رسالة تبرر لي فيها غيَابك المفاجئ!

دعني أخبرك أن الأمر كان قاسيًا ومُؤلمًا لدرجة لم أتصوَّرها، أن يختفي فجأة بلا مُقدِّمات شخصٌ عزيز عليك، منحته قلبك وثقتك وكل حياتك..

هذا ما فعلتُه بك، أليس كذلك؟

ذلك الألم الذي سكن قلبي في تلك الليلة البَاردة يُشبه الألم الذي سبَّبه لك انسحابي من حياتك فجأة دون أن أشرح لك أسبابي ودوافِعي، يُشبه أن يدعوك أحدٌ تثقُ به حتى النُّخاع للرَّقص على سَحابة، يُراقصك للحظات جَميلة على أنغام سعيدة ثمَّ يفرد جناحيه ويطير ليتركك تسقُط نحو الأرض وأنت تتلذَّذُ بموسيقى كئيبة وتبحثُ عن أجنحتك لتكتشف أنك لا تملكها!

بقيتُ بلا أجنحة تلك اللَّيلة وسقطتُ نحو الأرض كما تتساقط أوراقُ الأشجَار في أيلول!

اتصلتُ بعد تردد طويل بنوفل..

إياك أن تظن أنَّني فعلتُ ذلك لكي أُعاقبك به، وأجلد غيابك وغمُوضك المفاجئ، ولا لكي أتمرَّد عليك ككلِّ مرة حِين يُسيطر عليَّ الغضب..

أنا اتصلتُ به لكي أطمئن عليك، لكي يقلني إلى بيتك البعيد عن بيتي، لأنني لم أجد طَريقة أخرى للوصول إليك بعد أن اتصلتُ بك حتى تعبت، وبعد أن ناديتُ باسمك حتى جفَّ حلقي، وبعد أن أرسلتُ لك رسائلَ حتى بدأت ترتجف أناملي المتوترة!

قال بقلق حين فتحتُ باب البيت:

- ما الذي حصل؟ هل أنتِ بخير؟

تأملتُ قلقه وتوتره وهو ينتظر جوابي عن أسئلته بخوف وتردد، كنتُ أعرفُ أنه سيغضب حين يسمع سبب طلبي منه المجيء إليَّ بسرعة، كنتُ أعرفُ كيف سيلومني لذلك تركت طلباتي الكَثيرة منه حتى أضعه أمام بيتي وأمام الأمر الواقع.

- ندى، ماذا؟

أضاف ذلك بنفاد صبر.

قلتُ له وأنا أضع معطفي على كتفي وأخرج:

- أحتاجُ إلى أن تقلني إلى مكان ما.

- أين؟

- هيا يا نوفل، سأخبرك في السَّيارة.

ارتمى على مقعده إلى جانبي ثمَّ قال:

– أنا أنتظر.

قلتُ له:

– شغل المحرك أولًا.

– ندى!

زمجر بغيظ.

– نوفل!

تمتمتُ بنفس نبرته.

قال وهو يحرك رأسه حركات دائرية:

– لا أصدقك! لا أصدقك يا ندى! هل أحضرتِني في العاشرة مساءً وجعلتني أفوِّت المباراة التي أنتظرها منذ شهر لكي تطلبي مني أن آخذك إلى حبيبك؟

قلتُ له بصدمة:

– كيف عرفت؟

تجاهل سؤالي وقال:

– لماذا؟ هل تجاهَلَكِ أم أنه عاد إلى خطيبته؟

لا أعرفُ لماذا تمكَّنت مني سُخريته تلك المرَّة ولماذا شعرتُ بالخَوف من كلماته، بقيتُ صَامتة، مُستسلمة، وبدأ الشَّك ينهشُ عقلي.

تذكَّرتُ زيارة والدتك المفاجئة لنا، وتهديداتها لي ووعودها بأنَّك ستختارها إذا خيَّرتك بيني وبينها، وصدقني كان الأمر مرعبًا كثيرًا.

– أنا آسف.

تمتم بذلك نوفل وهو يركن السَّيارة أمام بيتك.

قلتُ له وأنا أتأملُ النَّوافذ التي تنبعث منها إضاءات قوية:

– أنا من يجب أن يعتذر منك، سامحني يا نوفل على كلِّ شيء.

تجاهل اعتذاري ووضع مجددًا سيجارة في فمه.

أضفتُ:

– هل تتنفَّس النيكوتين بدل الأكسجين؟

ابتسم بسخرية وقرب ولاعته من السيجارة، سحبتها من بين شفتيه ومزَّقتُها ثم قلت له:

– ألا تظن أن الوقت قد حان لكي تتخلص من هذا الهراء؟

قال دون أن ينظر نحوي:

- من المزعج أن تقدمي لي نصائح الآن فقط لأنك مترددة في النزول من هذه السيارة والبحث عن حبيبك المختفي.

فتحتُ الباب بغضب وتمشيتُ بخطوات ثقيلة نحو باب بيتك، وقفتُ بتردد، مذعورة، ترعبني دائمًا سماء الشِّتاء في الليل..

ضغطتُّ على الجرس وأنا أدعو ألا تفتح أمك الباب، ألا أُضطَر لمواجهتها والنظر داخل عينيها.

فُتح الباب أخيرًا، وظهر وجهك الجميل وعيناك الخضراوان اللتان تنثران أشعة مثيرة، غرست عينيك في عيني وبدأت أنفاسك تتسارع وتلك الحمرة تغزو ملامحك، أمام صمتك الذي طال قلت لك وأنا أضع يدي على خدك:

- حبيبي، هل أنت بخير؟ لماذا تجاهلتني طوال اليوم؟

قلت باضطراب:

- أنا آسف، كنتُ مشغولًا جدًّا.

قاطعتك:

- لم تجد الوقت حتى لرسالة تطمئنني بها عليك؟ لو تعرف كم أنا غاضبة منك، أنا جئتُ بحثًا عنك فقط لأنني وعدت نفسي أنني سأحارب من أجلك وأجلنا هذه المرة.

قلتَ وأنت تنظر في اتجاه سيارة نوفل:

- أنتِ تحاربين جيدًا مع هذا.

وأشرت بإصبعك تجاهه.

قلتُ لك بنفاد صبر:

- وكيف تريدني أن آتيَ في هذا الوقت؟ أين سأجد سيارة أجرة؟!

قاطعتني:

- اذهبي الآن وعودي إلى البيت.

- ماذا؟

- هيا يا ندى!

خُيِّل إلي أنكَ تعمدت أن تُسقِط ثلج برودك على قلبي، حاولتُ عبثًا إخفاء رعشتي وخوفي وصدمتي منك.

قلت لك بعدم فهم:

- ماذا يحصل يا نبيل؟

فقلت بغضب:

- لو لم تتركيني في المرة الأولى لما حصل كلُّ هذا.

- ما الذي حصل؟

فُتح الباب أكثر وظهر وجه أمك، ثم جسدها، وبعدها جسد وابتسامة مريم الواسعة! شعرتُ ببردٍ يأتيني من كلِّ مكان، منك، من نظرات أمك، من النسمات التي بدأت تداعب وجهي وشعري، من عظامي وأوردتي وقلبي، بقيتُ صامتة، وبقيتَ صامتًا، وتحدثت أمك بسرعة كالعادة:

- ماذا تفعلين هنا؟

- أتيت لرؤية نبيل.

تمتمتُ بصوتٍ مخنوق وأنا أتفحص مريم التي كانت تستمر في التبسم بسعادة.

أضافت أمك بقسوة:

- نبيل سيتزوج مريم، وهذه المرة تدخلك لن يمنعه!

نظرت إلى وجهك بحثًا عنك وعني لكِنني لم أجد شيئًا، أحنيتَ رأسك واستمررتَ بالنَّظر نحو الأرض كفتاة خجول! أمك أنقذتني من حيرتي وأسئلتي لأول مرة في حياتها واستطردت:

- مريم تحمل الآن حفيدي وسيتزوجان في أسرع وقت.

انفجرتُ ضاحكة، واستمرت نوبتي تلك لعدة ثوانٍ رفعتَ رأسك خلالها تتأمَّلني بقلق.

- جميل.

قلتُ فَجأة بصوتٍ مرتفع بينما كان رأسي يردد «لعنة أخرى»، «خطيئة أخرى»..

***

ما الذي يحدثُ يا نبيل في مُنتصف حكايتنا دائمًا؟

لماذا نصطدمُ في كلِّ مرَّة بكل هذه العراقيل؟

لماذا خطأٌ واحد، وجريمةٌ واحدة، ونزوةٌ صغيرة واحدة تُدنسُ بسرعة علاقتنا وتوقفها فَجأة كما يتوقَّف فجأة قلبُ المريض في قاعة الإنعاش؟

لماذا لا يُقدَّر علينا الحبُّ والبقاءُ معًا والاقتراب من بعض؟

من أين تأتي كل هذه الكهرباء التي تُصر على لسع أحدٍ منا إذا اقترب من الثَّاني؟ ولماذا تفعل ذلك؟ هذا حقًّا أمر مضحك، أليس كذلك؟ أصبحت الآن تلعبُ دور أبي، وأنا ألعب دور زوجة أبي، وطفلك الجديد سيأخذ دوري وبطولة حكايتي!

قلتُ فجأة وقد سمحتُ لدموعي بغسل ملامحي وبؤسي أمامكم:

- حسنًا، أنا آسفة!

ثم تراجعتُ خطوتين إلى الخلف وأنا أستمر في النَّظر إلى عينيك الحزينتين ويديك المكبلتين بحزام مسؤولية قوي، لأركض بعد ذلك نحو نوفل الذي كان يقف أمام سيارته، قلتُ له بغضب:

- خذني من هنا.

عاد إلى السَّيارة وقادها بصمت وهدوء، ثم قال بعد عشرات الدقائق وهو يفتح الباب:

- تعالي معي.

قلتُ له بصوتٍ مخنوق وقلب يضخ الدم بعنف:

- أين؟

اقترب من جهتي وفتح الباب ثم جذبني من ذراعي وهو يقول:

- تعالي هيا.

رفعتُ رأسي وتأملتُ مليًّا مدينة الملاهي المبهرجة وأضواءها الملونة المشعة.

- ماذا نفعل هنا؟

سألته وأنا أمرر أصابعي على عيني لأمسح بقايا حسرتي.

- سنلعب.

هتف بفرحة طفل صغير وهو يجذب جسدي المنهك، كان يقفز بسعادة من لعبة نحو لعبة أخرى ويصرخ ويشتم أحيانًا، وحين تنتهي اللعبة يقفز في اتجاهي ويقول لي:

- هل أنتِ متأكدة أنكِ لا تريدين خوض هذه التجربة؟

فأرد عليه:

- كنت تبدو لي طبيبًا ناضجًا، لكنك لست سوى طفل صغير ومشاغب.

أمسك يدي ودفعني نحو دولاب الهواء الضخم ثم قال:

- جربي هذه، ستخافين كثيرًا وسينتشر الأدرينالين في كل جسدك، واصرخي، اصرخي كثيرًا حتى ترتاحي.

استسلمت له ولجنونه، جلستُ على العربة إلى جانبه ثم ثبتُّ الحزام الواقي حول خصري وبدأتُ أفكر فيك وفي نظراتك المنكسِرة أمامي، وعدم استطاعتك اللحاق بي ومسك يدي والاعتذار مني.

هل هذا ما شعر به أبي حِين عرف بوجودي داخل بطن أمي؟ هل شعر بأنه عاجز عن التحرك؟ جامد؟ مخدر؟ مشلول أمام حبِّ حياته الذي يتلاشى من بين يديه؟

هل هذا ما فعله وجودي به؟ هل هكذا قيَّدتُ حريته وقطعتُ أجنحته ودمَّرت لوحة السَّعادة التي رسمها مع حبيبته؟

من المؤلم أن أكتشف أن ما فعلته مريم بنا هو ما فعلته أمي بأبي وحبيبته، ومن المؤلم أكثر أنك أنت وأبي استسلمتما لنزوات كئيبة دمَّرت قلبيكما وأحرقت كلَّ أحلامكما، لكن أبي استسلم في النِّهاية ورحل

بحثًا عن المرأة التي يُحبُّها، وأنت؟ هل ستفعل ذلك يومًا ما وتترك خلفك زوجتك وخطيئتك لتتجرع كلَّ ما تجرعته بعدك؟

تلك الليلة يا نبيل استطعتُ أن أختلق الأعذار لأبي، لأولِّ مرة في حياتي وإن لم أفهم كثيرًا لماذا تخلى عني بينما كان يمكنه أن يتخلى عن أمي فقط، وتلك اللَّيلة بينما كنتُ أشعر بأن العربة التي أجلس عليها مع نوفل بدأت تصعد نحو السَّماء اكتشفتُ أنه مهما حصل ومهما أحببتك ومهما وعدت لكي أحارب من أجلك، فإنَّني لن أستطيع أن أتقن دور زوجة أبي، لن أستطيع أبدًا مهما حدث.

هل تعرف؟ لو لم يحدُث لي كل هذا ولو لم أرَ تلك القصة تتكرر أمامي ربما كنتُ الآن مثلها، لكنَّني أعرفُ كم أن قرارها في الاستمرار مع رجل متزوج وله ابن مُدمِّر بالنسبة لذلك الطفل، سيدمره بالكامل وسيمزقه إلى قطع صغيرة، وأنا لستُ أنانية أو جشعة لكي أجعل أحدًا يعيشُ كلَّ ما عشتُه!

صرختُ بكل قوتي حين أصبحتُ في السَّماء كطير جريح يبحث عن الحرية، صرختُ حتى شعرتُ بأن أحبالي الصوتية ستتمزق وأن قلبي سيتوقَّف، صرختُ يا نبيل وتمنيتُ أن تنفجر داخلي وأن تتخلص دورتي الدموية من بقاياك، صرختُ ليس خوفًا ولا قلقًا من اللعبة المخيفة، بل صرختُ ألـمًا وتمردًا وعصيانًا لكل ما يحدث لي.

***

بعضُ الأشخَاص لا يُقدَّر عليهم الحُبُّ، حتى لو وجدوه، يتبخَّر فجأة بين أيديهم وكأنَّه قطرة ماءٍ لعينة في صحراء قاحلة، وأنا من هؤلاء الأشخَاص يا نبيل، وجدتُك، تذوَّقتُ الحبَّ معك، وكنتُ على وشك أن ألقي بجسدي في واحتك، لكن عطشي لم يُروَ حتى أصبحت سرابًا، فأصبح محتمًا عليَّ الوقوف من جديد والبحث عن واحةٍ أخرى حقيقية لكي أبلل شفتيَّ وأغذي عروقي الجافة.

من الغريب جدًّا أن يكون الحبُّ أمامي، قريبًا جدًّا مني لكنني لا أستطيع أن ألمسه، كسجين ينظر إلى مفاتيح حريته التي تتدلى من حزام حارسه، ولا يستطيع أن يصل إليها ولا أن يمسكها، وحتى لو أمسكها فهو لن يستطيع فتح الباب والقفز بسعادة لأنه سيتلقى ضرباتٍ عنيفة تُسقطه أرضًا وتعيده إلى زنزانته الباردة!

بدأ المطر ينزلُ وأنا أطير في السَّماء، وأتمنى أن يستمر طيراني لأطول مدة وأن أبتعد كما تبتعد الطُّيور المهاجرة بحثًا عن مناطق أكثر دفئًا وهدوءًا، لكن أمنياتي دائمًا تقف في منتصف الطريق..

أوقف العامل اللعبة وطلب منا النزول فجأة بحجة المطر!

- هل أنتِ بخير؟

سألني نوفل وهو يمد نحو وجهي كوب قهوة ساخن.

- لا، لستُ بخير.

قلتُ له ذلك وأنا أتأملُ ملامحه المبلَّلة.

جلس قبالتي على الطَّاولة الخشبية في ذلك المقهى شبه الفارغ في مدينة الملاهي ووضع قدح قهوته الكرتوني بين شفتيه، انتظرتُ أن يسألني لماذا لكنه ظل صامتًا وهادئًا.

قلتُ له:

– ألن تسألني لماذا؟

دون أن ينظر إليَّ قال:

– نحن نسأل عن شيء حين لا نعرفه.

– لا، أنت لا تعرف أي شيء.

تجاهلني واستمر في احتساء قهوته.

– مريم حامل!

استطعتُ أن ألفت انتباهه، تفحصني لعدة ثوانٍ ثم قال بسخرية:

– محظوظ هذا النبيل، يخون ويقيم حفل زفاف ويتسبب في خلق أطفال مع نساء أخريات وهناك من يسامحه ويصرخ ويبكي وينهار من أجله!

أمام صمتي أضاف مازحًا:

– ليت كلَّ الرجال يحظون بأنثى مثلك، أنتِ مهرك ذهب يا بنتي.

– أنت لن تقول كل هذا الكلام الكبير لو عرفت حقيقتي، حقيقة قصتنا، أنت لا تعرف عني سوى ما أريدك أن تعرفه.

رنَّ هاتفي، صوت الرنة المزعج قاطع حوارنا، تأملتُ مليًّا اسمك على شاشتي، ولم أستطع أن أمنع دمعتي الحارة من الانزلاق على اسمك ورقم هاتفك، أغلقتُ هاتفي ثمَّ قلتُ له:

– هل تستطيع الزَّواج بي؟

***

قال وهو يركن السَّيارة أمام بيتي:

– لا بد وأن الخالة فريدة قلقةٌ عليكِ، اذهبي الآن وارتاحي.

قلتُ له:

– أنا آسفة، لقد تماديتُ كثيرًا، سامحني لأننِي أعاملك وكأنك لُعبةٌ بين يديَّ..

قاطعني:

– اذهبي الآن وارتاحي.

سألته بحزن:

– هل أنا أنانية؟

أمسك أنفه وقام بفركه قبل أن يمرر يده على لحيته المتوسطة الطول ثم قال:

- أحيانًا.

حاولتُ فتح الباب لكنه كان مقفلًا، صحت به:

- افتح هذا الباب.

- هل أنتِ مجنونة؟ هل كان عليَّ أن أخبرك بما تريدين سماعه لكي ترتاحي؟

تمتم بذلك وهو يضحك.

قلتُ له بتهديد:

- افتح هذا الباب يا نوفل.

- لا.

- نوفل!

- أحيانًا تتصرفين بطفولية وأنانية لكنها أنانية لذيذة لا تقلقي.

- حسنًا فهمتُ، افتح لي الباب.

- أنا موافق يا ندى.

- على ماذا توافق إن شاء الله؟

- على عرض الزواج المثير.

- هل تسخر مني أيها المجنون؟

- لا أسخر منكِ.

- ألم تتجاهلني في المقهى؟

- لا، لم أتجاهلك، نحن الرجال أيضًا حين يُعرض علينا الزواج نتردد ونتوتر ونحتاج إلى بعض الوقت للتفكير.

قال ذلك بصوتٍ حاول أن يبدو رقيقًا وهو يحرك يديه بغنج كالنساء، فبدأتُ أضحك.

- مجنون، افتح لي الباب.

قال بنبرة أكثر جدية:

- أنا أفهم أنك تحاولين الهرب منه، أنا موافق على مساعدتك لكي تتخلصي منه، لكن لماذا؟ لماذا تسمحين لها بأخذه منك؟ حملها ليس سببًا كافيًا لكي تنهي قصتك معه.

قلتُ له بغضب:

- أنا لم أنهِ قصتي معه، هو تجاهلني طوال الوقت ولم يخبرني بأي شيء، بل بقي يخطط مع أمه للزواج بها، وصدقني حتى لو فعل فطفلهما سبب كبير لكي أنسحب من حياتهما.

- لماذا؟

سأل بفضول.

قلت له بلا تردد:

- لأنها نفس قصتي، أبي أيضًا كان يحب امرأة أخرى و..

توقفتُ ثم قلت له:

- واضطر إلى الزواج من أمي بسببي ثم تركنا في النهاية.

ظل صامتًا يعبث بشعره الكثيف ويراقبني بفضول:

- لقد قابلته بعد أكثر من عشرين سنة ليخبرني أنه لا يحب أمي ولا يحبني لأنني لعنة وخطيئة، تصور!

قال فجأة:

- هذا يعني أن «نبيل» سيكره ذات يوم طفله وزوجته ويتركهما من أجلك..

قاطعته:

- هذا إذا وجدني، لكنني لن أكون متاحة لكي يفعل بهما هذا، وحينها لن يجد أمامه سوى البقاء مع طفلته وحمايتها والوقوع في حبها.

قال:

- ولماذا تسألينني هل أنتِ أنانية؟

قلتُ له:

- أنا أنانية معك فقط!

قال وهو يمسكُ يدي:

- تعرفين أنك تستطيعين أن تفعلي بي ما تشائين!

سحبتُ يدي وقلتُ له:

- هيا افتح هذا الباب!

***

كان لزامًا عليَّ تلك الليلة أن أُحنِّط قلبي بعد موته، كان عليَّ أن أعالجه وأعقِّمه لكي أحميه من التَّفكك والتحلل، وكان عليَّ أن أبكي كثيرًا تحت قطرات ماء الحمام السَّاخن وأحاول تعقيم عيني وقلبي وشفتيَّ وشعري وكلِّ جزء من جسدي مُشبع بكَ، كان عليَّ أن أُقاوم لكي لا أنهار، أن أكون قوية كفاية لكي أضع قلبي تحت قدمي وأغرز فيه حذائي ذا الكعب العالي كلما حاول العواء لكي يطلب النَّجدة قبل أن يحاول الانقلاب علي وإعلان ثورة على قراري!

كان عليَّ أن أهجرك هذه المرة، إلى الأَبد..

- ما بكِ يا صغيرتي؟

قالت أمي ذلك وهي تجلس على حافة سريري بينما كنتُ أستلقي على ظهري وأُثبِّتُ عينيَّ على السَّقف..

- أَمُوت!

- لَمَاذَا؟

- فقدتُ «نبيل»!

- ألم تتصَالحا؟

- تصالحنا لكن الحَياة لم تُصالِحنَا ولا تُريدنا معًا!

- ما الذي حدث؟

- يُعيد الزَّمن نفسه، تُكتَبُ مجددًا الحكاية نفسها.

- أيُّ حكاية؟

- حين تركته ذهب إلى امرأةٍ أخرى، وحين تصالحنا عادتْ مع طفلٍ في أحشائها لتُغيِّر النِّهاية.

بعد صمتٍ طويل قالت:

- سيعود إليكِ، مهما جرفت الحياة رجلًا عاشقًا سيعود إلى المرأة الوحيدة التي اختارها قلبه.

- لكِنني لا أُريد أن يعود الآن.

- لماذا؟

- لا أُريد أن تُعاش مجددًا حكايتكِ وحكايتي.

- وماذا ستفعلين؟

- لن أفعل أيَّ شيء، سأنام الآن.

قلتُ لها ذلك وأنا أغطي رأسي ببطانيتي.

***

- لماذا لا تردين على اتصالاتي؟

صرختَ في وجهي حين فتحتُ لك الباب في الصباح. تأملتُ وجهك وملامحك الذَّابلة والسَّواد تحت عينيك، صرختَ مجددًا:

- هل تتخلين عني مرة أخرى؟

- لا يا نبيل، أنا لا أتخلى عنك.

- لقد اتصلتُ بكِ مرات كَثيرة ليلًا وتجاهلتِها كلها..

قاطعتك:

- وأنا اتصلتُ بك طوال اليوم ولم ترد عليَّ.

- كنتُ في مأزق، كنت تائهًا وضائعًا واحتجتُ إلى بعض الوقت وحدي لأرتب أفكاري.

- وأنا ضعتُ وتهت مساءً يا نبيل واحتجتُ إلى بعض الوقت مع نفسي.

- هل تعاندينني الآن؟ هل تنتقمين مني؟

- لا.

- ما ذنبي في كلِّ ما حدث؟ هل خططت يا ندى لكل هذا؟

قلتُ لك بنبرة ساخرة:

- لا، لم تخطط لأي شيء، سقط الطِّفل من السَّماء وحده داخل بطن مريم!

نظرت إليَّ بحقد كبير، رميتني بنظرات غاضبة كادت تفترسني وتنهشُني، فصرختُ بك:

- ماذا؟ لماذا أنت غاضب؟ لماذا تصرخ في وجهي وتكاد تفترسني وكأنه ذنبي؟!

- أليس ذنبك؟ ألم تدفعيني نحوها بهجرك وغموضك؟

ضحكتُ ضحكات غاضبة متتالية ثم قلت لك:

- والآن تلومني على إثمك!

- نعم ألومك، دمرتِ كل شيء بلا سبب، فقط لأنك أنانية ومُدللة.

نظراتك ما زالت تنهشني من الداخل وبريق عينيك ما زال يصعقني حتى الآن.

قلتُ لك:

- لا ليس بلا سبب، تركتك لأننِي كنتُ أتألَّم، لأنني..

كنتُ على وشك إلقاء جروحي وخدوشي عليك، لكنك قلت لي بقسوة:

- لا أريد أيَّ تبرير الآن.

ثمَّ ركضتَ نحو سيَّارتك ورحلتَ.

***

فكَّرتُ بك بكثَافة ليلة خِطبتي من نوفل..

فكَّرتُ بك وأنا أرتدي نفس القفطان الكريمي الذي ارتديته حين أحضرت والديك لكي يطلبا يدي من أمِّي، فكرتُ بك وأنا أُملسُ شعري مجددًا، ثم وأنا أضع مستحضرات التَّجميل التي تكرهها، فكرت بك كثيرًا وأنا أقفُ في الصَّالة وأنتظر اقتراب نوفل وسط بذلته السَّوداء وابتسامته المكسورة وهو يقف أمامي ويهمس لي مازحًا:

- كل هذا من أجلي؟!

فكرتُ بك وبأمك حين اقتربت أمُّه قصيرة القامة وحضنتني بقوة ثم قالت بسعادة:

- ما شاء الله! أنتِ جميلةٌ جدًّا يا صغيرتي.

قبل أن ترفع وجهها ويديها لتداعب وجنتيَّ.

فكرتُ بكل ما عشناه معًا منذ أول لقاء حتى آخر لقاء حمَّلتني فيه المسؤولية واختفيت! لكنني لم أبكِ، لم تقذف عيناي ولا قطرة من الدُّموع العاطفيَّة المشبعة بهرمونات التَّوتر والحزن، لم ترتعش يداي ولم ترتجف شفتاي ولم أشعر بدوار وغثيان فظيع!

كنتُ حزينة ومنكسرة إلى الحدِّ الذي لم أعد أشعر فيه بشيء!

أعتقد أن أمي لم تصدقني حين أخبرتها أن نوفل يعرفُ كل شيء عن أبي وأنه أخبر أمه بذلك، أعتقد أنها لم تستطع أن تثق بي مجددًا، أعتقد أننا حين نفقد الثقة بشخصٍ ما يصعب علينا استرجاعها حتى لو كان طفلنا.

بدأت هي الحديث قائلة:

- والد ندى رحل عنا منذ عشرات الأعوام ولا نعرفُ عنه أي شيء.

فردت والدة نوفل اللطيفة:

- نعرف يا سيدة فريدة، أنا حقًّا آسفة، أتمنى أن يستطيع ابني سدَّ كل فراغ في حياة ندى، وأنا وزوجي سنكون بمنزلة والديها أيضًا، بالمناسبة؛ هو أيضًا لم يستطع أن يأتي معنا لأنه خارج البلد، ولأن ابني الشقي متلهف للخطبة قررنا أن نأتي الآن للتحدث وسيأتي هو أيضًا إن شاء الله.

ابتسمت أمي بسعادة ورضا وهي تتأملني وشعرتُ كأنها تقول لي: «إياكِ أن تتخلي عن هذا الشاب وهذه الحماة الرقيقة النادرة».

وضع نوفل بلهفة خاتمًا رقيقًا من الذَّهب الأبيض في بنصري ومدَّ يده نحو وجهي لكي أزين بنصره بذلك الخاتم الفضي، أدخلته بهدوء، بلا توتر ولا تردد، دخلنا معًا إلى غرفتي بطلب من أمي لكي أريه الغرفة التي قضيت فيها مراهقتي وشبابي، أغلقَ الباب ووقف يتفحصني ثم قال:

- بماذا تشعرين الآن؟

- بماذا سأشعر يا نوفل؟

- لا أعرفُ، أخبريني!

- أشعر بأنني أنطفئ وسأصبح رمادًا قريبًا.

- هل أنا سيئ إلى هذا الحد؟

قال ذلك مازحًا.

- نعم، أنت بغيض، لا أعرفُ حقًّا ماذا سأقول لإيمان.

- ماذا يجب أن تقولي لها؟

– كيف سأخبرها أننا أقمنا خِطبة سريعة وكيف ستتفهمني؟

– ولماذا عليها أن تتفهمك؟

– متى ستتوقف عن التصرف وكأنك غبي لا يفهم؟

– ماذا يا ندى؟ ماذا؟

– أنت تعرف أنها تحبُّك!

– وأنتِ تعرفين أنَّني لا أكترثُ لهذا الموضوع، وأنَّني أحبُّكِ أنتِ!

ألصقتُ جبيني مجددًا على النَّافذة ثم قلتُ له:

– كيف تحبني وأنت تعرف أنني أحب شخصًا آخر وأستغلك فقط لكي أنهي تلك القصة؟

– مهما حدث سأظل أحبك لأنه أمر خارج عن إرادتي.

– زواجنا يا نوفل ليس حقيقيًّا.

– أعرفُ، هل أبدو لك أخرقَ؟

تنهدتُ بعمق ثم قلت له بتردد:

– هل تستطيع الوقوع في حبِّ امرأةٍ تعرضت للاغتصاب أو التحرش؟

قال وهو يقترب ويلصق جبينه على النافذة أيضًا:

– أستطيع إذا كنتُ أعشقها، وأنا أفعل ذلك الآن.

شعرتُ بقلبي يرفرفُ بعشوائية كطائر مسجون في قفص صغير، ودون أن أتحرك من مكاني قلت له:

– ماذا تقصد؟

أضاف:

– أنا أعرفُ كلَّ شيء يا ندى.

– ماذا تعرف يا نوفل؟

– أعرفُ أننِي أحبك، وحين أحببتك واختاركِ قلبي، اختارك أنتِ، بماضيك، بعيوبك ومميزاتك، بالأشياء التي تخجلين منها، بجسدك الذي تكرهينه، بكل شيء فيك، حتى بعشقكِ لرجل آخر، ولا شيء يستطيع أن يوقف هذا الشعور داخل قلبي.

قلتُ له بخوف:

– كيف تعرف؟

فرد:

– ألم تُخبركِ أمك أنكِ تثرثرين كثيرًا أثناء النوم؟

– لا، لم تخبرني!

قال:

– أحيانًا كنتُ أتسلل إلى غرفة الاستراحة لكي أراقبك وأنتِ نائمة، وسمعتك في إحدى المرات تتمتمين لوالدك أن شقيقه حاول الاعتداء عليكِ في طفولتك.

تنهدتُ بعمق ثم قلت له وأنا أنظر إلى عينيه:

– وكيف أصبحت تراني بعد ذلك؟

وضع يده على خدِّي والتهمني بنظراته ثم قال:

– أصبحتُ فخورًا بكِ، باختيار قلبي لامرأة قوية مثلك، أصبحتُ أتمنى لو كنتُ مكان نبيل واستطعتُ الظفر بقلبك وبحبكِ الغريب له على الرغم من كلِّ ما مررت به.

سألته مازحة:

– يعني لم تشفق عليَّ؟

– أحيانًا فعلتُ، مثلًا عندما أنهيتِ خِطبتك لسبب تافه كهذا.

– ماذا كان عليّ أن أفعل؟

– لا أعرفُ، لكن ما أعرفه أنه ما كان عليكِ أن تخجلي من نفسكِ ولا مرة، ما كان عليك أن تشعري بأنك أقل من نبيل أو مني أو من أي شخص آخر، أنتِ لا تعرفين الذنوب التي يرتكبها الرجال منذ طفولتهم حتى شيخوختهم، لا يمكن أن تقارَن بما حدث لك.

شعرتُ بقلبي يتنهد وبتشنجات جسدي تختفي، وبالرائحة الكريهة التي تنبعثُ مني تتلاشى شيئًا فشيئًا. قلتُ له بتردد:

– حين سألت «نبيل» هل يمكنه الزواج بامرأة تعرضت للاغتصاب اضطرب وقال «لا أعرف» ثم غير الموضوع.

قاطعني:

– وهذه ستكون ردَّة فعل أغلب الرجال الشرقيين.

– وماذا عنك؟ هل السيِّد من أصول إنجليزية؟

– أنا أحبُّكِ حبًّا مضاعفًا، أحبكِ حب الصديق لصديقه، وهو حبٌّ قوي ومتين، وأعشقك عشق رجل لامرأة لم تكن له من قبل ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص منها!

شعرتُ ببرودة يده تقتحم مسام وجهي فجأة مع أنها كانت هناك منذ لحظات، ابتعدتُ عنه وقلتُ له:

– لا أعرفُ ماذا كانت ستكون ردة فعل نبيل لو أخبرته بكل هذا، لكنني لم أستطع البوح لأي شخص بقصتي البائسة هذه.

– وأنا أيضًا لا أعرفُ، ما أعرفه الآن أنه ارتكب معاصيَ بشعة، ولطخ جسده وشرفه، ولا يعذب نفسه كما تعذبين نفسك أنتِ!

قلتُ له بنفاد صبر:

– وأنت؟ ألم ترتكب أي معاصي من قبل؟

– بلى ارتكبتُ، برغبتي وبكامل وعيي وإرادتي، لهذا أخبرك أننا سيئون وبشعون، وأنتِ الوحيدة النقية هنا، لذلك أريدك أن تتوقفي عن جلد نفسكِ وأريدك أن تذهبي إلى طبيب نفسي وتحكي له كل شيء لكي يساعدك.

***

قالت أمي حين غادرا وارتخيتُ في مكاني:

– أنتِ تلعبين بهذا الشاب.

– لا.

– بلى، وهو لا يستحقُّ منكِ كلَّ هذا.

– أمي، هل تظنين أنَّني أجبرته على هذا؟

– لا، لم تجبريه لكنه لا يستحقُّ منك أن تعامليه هكذا فقط لأنه يحبكِ ويتحمل جنونك.

– أمِّي، ماذا تقصدين؟ ألم تقولي لي حاربي من أجل حبك وألا أتخلى عن نبيل لأنه يحبني؟

– لكنك قلتِ لي إنك لن تعودي له، ثم إنني قلت ذلك قبل أن أقابل والدة نوفل وأقارنها بتلك الشَّيطانة.

***

اشتقتُ كثيرًا إلى صوتك الذي لم أسمعه منذ أسابيع، أردتُ عناقًا جديدًا حين اتخذتُ مكانًا هادئًا في المطعم الإيطالي قبالة نوفل، أردتُ ولو نظرةً من نظراتك الحنون لعلَّها تُعيد إلى قلبي الذي قتلتَه شيئًا من الحياة.

امتصَّ نوفل سيجارة بسُرعة ثم نفث الدُّخان الكثيف وهو يستدير، قلتُ له بعتاب:

– متى ستتوقَّف عن إدخال هذه السُّموم إلى صدرك؟

قال بلا مبالاة:

– ربما حين تتوقفين عن البحث عن نبيل في كلِّ مكان تطؤه أقدامنا.

– نوفل، هل بدأت تشعر بالغيرة الآن وتنوي ممارستها عليَّ؟

ظلَّ صامتًا، ثمَّ سارع لإشعال سيجارة أخرى قبل أن يُعدمها بين شفتيه.

– توقَّف!

صحتُ به وأنا آخذ منه ذلك السُّم اللعين وأقوم بإطفائه.

قال دون أن ينظر نحوي:

- لم يسأل عنكِ مجددًا، أشكُّ في أنه يعرفُ شيئًا عن خِطبتنا.

وأنا أيضًا أشك يا نبيل، أشك أنك تعرف عني أي شيء الآن، أشك في أنك تكترث..

من المضحك أنني انتظرتُ تمسكك بي ولحاقك بي، وأقحمتُ نوفل في حياتي لكي أبعدك عني به، بينما ابتعدتَ عني بمفردك دون أن تحتاج إلى صدي لك وكسري لك.. أنا المكسورة الوحيدة فقط في هذه القصَّة، أليس كذلك؟

قال فجأة محاولًا تغيير الموضوع:

- كيف أصبحت علاقتك مع إيمان؟

- سيئة جدًّا، كانت بعيدةً عني دائمًا على الرغم من أنَّني تشبثتُ بها لكنها الآن مزقت كلَّ روابط صداقتنا، أو ربما أنا من مزَّقها بما فعلناه.

قال وهو يأخذ حبَّات جمبري إلى فمه:

- لقد حاولَت إهانتي هذا الصباح، بسببك.

- لم أفهم!

- قالت إنَّني عبد من عبيدك، وإنَّني بلا كرامة لأنني أقبل أن تفعلي بي كل هذا.

قلتُ له بخجل:

- أنا آسفة يا نوفل.

- أعتقد أن الجميع سيعرفُ بفضلها طبيعة علاقتنا الآن، هل كنت مجبَرة على إخبارها بكل شيء؟

- فعلتُ ذلك لأبرر لها فقط أسباب قيامنا بهذه الخطوة.

***

رجلٌ يُحبُّكِ، أم رجلٌ تُحبِّينه؟

كان هذا عنوان حلقة جديدة من برنامج أتابعه كل أسبوع، استلقيتُ على الكنبة وأنا أتتبع فقراته باهتمام بينما كانت أمي تحوك سترة صوفية من أجلي..

سألت المراسِلة بعض النساء في الشَّارع وكانت الردود مختلفة، هناك من تقول رجلًا يحبك طبعًا، وهناك بعض العاشقات الحالمات اللواتي يؤكدن أنه من المستحيل العيش مع رجل لا نحبه، لكنني لم أجد ولا واحدة تشبهني، واحدة تُحبُّ شخصًا ويحبها لكنهما لا يستطيعان أن يجتمعا وبين يديها الآن رجل يحبها على حقيقتها ولا تستطيع الشعور به..

قالت أمي:

- لو عاد بي الزَّمن إلى الخلف كنتُ اخترتُ رجلًا يُحبُّني، رجلٌ يُحبُّكِ يعني رجلًا سيفعل كلَّ شيءٍ ليجعلك تُحبين نفسكِ، وعندما ستُحبِّين نفسكِ ستقعين بلا شعور في حبِّه!

كانتْ كلماتها مُخيفة، فنوفل جعلني أحبُّ نفسي وأحترمها وأقدرها كما لم أفعل خلال كلِّ حياتي.

***

تسلَّلتُ في الصَّباح إلى غرفة الاستراحة في المستشفى واقتربتُ بهدوء منه، كان يغُطُّ في نوم عميق، راقبتُ استلقاءه على ظهره وكأنَّه طفلٌ صغير..

تسَاءلتُ كثيرًا يا نبيل وأنا أنحني في اتجاهه هل سأستطيع الوقوع في حبِّه ذات يوم، سألتُ قلبي كثيرًا عنه وحاولتُ إقناعه بأنه شخصٌ رائع، شخص يُحبني كما أنا، بحقيقتي، وبماضيَّ، وبعيوبي، وبأمراضي، واضطراباتي، شخص لستُ مضطرة إلى التظاهر أمامه أو التمثيل عليه وأتصرفُ معه دائمًا على طبيعتي دون أن أخاف من أن تتحطم صورتي داخل عينيه، لكنَّك تعرف قلبي، تعرف كيف يُفكِّر وكيف يشعر، تعرف أنك وحدك موشوم عليه، وتعرف كيف مات وفقد لذَّة كلَّ شيء منذ ابتعادك!

تحرَّك جسده فجأة ثمَّ أمسك يدي بقوة، فصحتُ به:

- نوفل، اترك يدي!

قال بصوته الحاد:

- هل اشتقتِ إليَّ؟

- نوفل، ماذا تفعل؟

جذب يدي نحو صدره ثم وضعها على قلبه، شعرتُ بلسعة كهرباء جديدة وأنا أتذكر كيف كنت تضع يدي على قلبك، وحاولتُ سحبها لكنه كان يمسكها بإحكام ويغرسها في صدره حتى شعرتُ بضربات قلبه ترتطم على يدي، قلتُ له بنفاد صبر:

- اترك يدي.

فتح عينيه المنتفختين من قلة النوم ثم قال:

- أتمنى أن أقضي ما بقي من حياتي وأنا أستيقظ على عطرك ولمسة يدك ودلالك الزائد هذا.

- هل جننت يا نوفل؟

- إذا كانت أبسط أحلامي هي الزواج بالمرأة التي أحبها فنعم، جننت.

رفع جسده عن وسادته ثم غرز عينيه داخل عيني وقال:

- أحبكِ كثيرًا.

- نوفل، اترك يدي!

- لماذا؟

- لأنني لا أريد.

أفلت يدي وترك جسده يتهاوى مجددًا على السرير ثم استدار في اتجاه الحائط، قلتُ له وأنا أمسك يدي التي خنقها بين أصابعه:

- كيف مرت مناوبتك؟

لكنه تجاهلني، استدرتُ لكي أترك الغرفة فوقعت عيناي داخل عيني إيمان الغاضبة، تسللت بسرعة نحو الخارج، ولا أعرف حقًّا كيف دخلت دون أن أشعر بها، صحتُ وأنا ألحق بها:

- إيمان، انتظري أرجوكِ.

قالت بصوت باكٍ:

- أنتِ أكثر شخص أناني ووقح رأيته خلال حياتي كلها.

كسرتني كلماتها يا نبيل، كسرتني دمعاتها واتهاماتها بأنني أنانية، هل أنا حقًّا أنانية؟

أنت أخبرتني بأنني أنانية، ووالدتك، وإيمان، وحتى نوفل!

كلكم اتفقتم على أنَّني أنانية ووحدي ما زلتُ لا أشعر بذلك!

قلتُ لها بصوتٍ حزين:

- أنتِ تعرفين أنني أحبُّ نبيل، أنا شرحت لك لماذا أنا مع نوفل الآن.

قاطعتني:

- أنتِ لا تحبين أي شخصٍ سوى نفسك، وماذا كنت تفعلين في الغرفة عند رأسه؟ لماذا دخلتِ عليه وهو نائم وتقربتِ منه بما أنكِ تحبين «نبيل»؟ أنت مريضة، فقط لأن «نبيل» انزلق من بين يديك تحاولين الآن السيطرة على نوفل، على الرغم من أنك تعرفين أنني أحبه!

ثم ركضتْ نحو الخارج..

***

أنا لا أُريد السَّيطرة على أي شخص يا نبيل، لا أريد أن أؤذي أيَّ شخصٍ سوى أولئك الذين آذوني وسلبوا مني طفولتي وأنوثتي وكل حياتي، لا أريد أن أوذيك، ولو أردتُ ذلك كنتُ تزوجت بك دون تردد، دون أن أشعر بأنني لا أستحقُّك، دون أن ألقي بجسدي وكرامتي عند تلك الطبيبة ودون أن أشعر بأنني ملطخة وبأنك نقي تستحق شيئًا أفضل مني، أنا لا أريد أن أوذي نوفل، ربما آذيته لكِنني لم أعده بأي شيء وهو يعرف أنَّني لا أحبه، وتلك الليلة التي طلبت فيها منه الزواج كنتُ مكسُورة، ولا أدرك حقًّا ما الذي كنتُ أهذي به.

لا أريد أن أكسر إيمان، ولو تعرف أن حياتها ستكون جحيمًا كما كانت حياة أمي لتوقفت عن الاهتمام به والوقوع من أجله ومحاولة الظفر به، هي جميلة ورقيقة وتستحق الحبَّ، لكنها أفنت حياتها من أجل شخص لم ينظر إليها من قبل ولن يفعل ذلك، وليس بسببي، لقد كان عازبًا منذ عشر سنوات ولم يقترب

منها، أتمنى أن تفهم ذلك يومًا ما وأن تعرف أن الحبَّ من طرف واحد ليس حبًّا، هي قالت له هذا بنفسها لكنها نسيت أن تقتنع به أولًا!

لو تعرفون كم كرهت نفسي وكم مرة تمنيتُ الموت والخلاص وكم مرة شعرتُ بأنني أجزاء متفرقة وضائعة لن تلتقي مجددًا، ما كنتم اتهمتموني بالأنانية ولا مرَّة!

***

أوقف نوفل السَّيارة أمام عمارة عالية ثمَّ قال لي:

– هيا اذهبي يا ندى، ولا تترددي لتخبري الطَّبيب بكل ما تشعرين به.

قلتُ له بخوف:

– لا أُريد يا نوفل، لا أريد أن أخبر أيَّ شخصٍ آخر بما حلَّ بي، لا أستطيع أن أبوح بتفاصيل ذلك اليوم حتى لنفسي، أرجوك خذني من هنا.

قال وهو يمسك يدي:

– لقد أجَّلتِ هذه الجلسة أربع مرات، أريدك أن تثقي بي وأن تتوقفي عن الهرب.

– أنا خائفة.

قلتُ له ذلك بصوتٍ مرتجف.

قال وهو يمسك يدي بين يديه بحنان:

– لا تخافي، أنا هنا سأنتظرك.

خطوتُ تلك الخطوات بصعوبة، شعرتُ وكأنَّني أتمشى على خيطٍ رقيق وأنني لو فقدتُ توازني سأسقط في حفرة مظلمة، التفتُّ في كلِّ مرة شعرتُ فيها بأنني أسقط نحو سيارته وتمكنت نظراته وهو يجلس على غطاء السيارة من إنقاذي دومًا، رميتُ نفسي في المصعد وطرتُ بخوف كبير نحو الطابق الثالث.

– تفضلي سيدتي.

قالت المساعدة ذلك وهي تبتسمُ حين اقتربت منها.

– مرحبًا.

– هل لديكِ موعد؟

– نعم.

– تفضلي أرجوكِ على الأرائك، سيستقبلك الطبيب بعد أن ينتهي من جلسة مع أحد مرضاه.

جلستُ بهدوء على أريكة مخملية وتوترتُ كثيرًا وكأنَّني أزور طبيبًا نفسيًّا لأول مرَّة، هل تذكر ما هو أول شيء كنتُ أفعله بمجرد أن أشعر بأنني أنهار؟ كنت أتصل بك، وخلال تلك اللحظات القليلة التي سبقت دخولي غرفة رجل غريب وتعرية روحي أمامه أردتُ فقط سماع صوتك! فاتصلتُ بك بلا تفكير ولا وعي، أردتُ سماع صوتك وليحترق كلُّ شيء آخر، وليتني لم أفعل! ردَّت عليَّ مريم وقالت لي بصوتٍ غاضب:

– لماذا تتصلين بزوجي؟

زوجها.. هل أصبحت زوجها دون أن أدري؟ ربَّما كنتُ أعرف أنك ستتزوجها، لكنَّني تفاجأت كثيرًا وكأن الفكرة لم تخطر ببالي قط، ظلت تردد أسئلة لم أسمعها ثمَّ أغلقتُ الهاتف في وجهها.

في المرة الأولى حين كنت تقيم حفلة زفافك كنتُ أعرف متى وأين وكيف، كنتُ أعرفُ كلَّ شيءٍ لأن أمك لم تبخل عليَّ بكل تلك التفاصيل، اعتقدت أنها بفعلتها تلك ستحطم كلَّ أمل سيجمعني بك من جديد، لكن يبدو أنها هذه المرة لم تتردد في إخفاء كل شيء، أعتقد أنها ظنت أنني سأداهم حفل الزفاف مجددًا لكي أخطفك منهما، لكنني لم أكن سآتي، ليتها فقط أخبرتني لكي لا أتصل بك وأضع نفسي مكان عشيقة سابقة تتصل بزوج جديد لترد عليها زوجته وتهينها! وربما الأمر لم يكُن بذلك السوء، فحين وصل دوري دخلتُ نحو الطبيب وتقيأت عليه كل وجعي.

***

خرجتُ من عيادة الطَّبيب النفسي وكأنني طائر حر، دفع الأقفاص نحو الجحيم وحلَّق في السَّماء البعيدة وداعب السُّحب وامتصَّ طاقة كبيرة من النُّجوم، شعرتُ وكأن السُّم الذي كان يستقر في جوفي اختفى، شعرتُ وكأن أحدهم أنعش قلبي وثبَّت عليَّ أجهزة للتنفس الاصطناعي وأعادني إلى الحياة مجددًا، شعرتُ أخيرًا بالحياة يا نبيل، بالحياة التي فقدتها يوم رحيل أبي ويوم ذبح جسدي وروحي وقلبي الصغير بخنجر خيانة حافٍ وصدئ، شعرتُ بحضن نوفل الذي اقترب مني بقلق وحضنني بقوة، شعرتُ بسعادته لنجاحي في وضع كلِّ ماضيَّ تحت قدمي ومواجهته والرقص عليه، رقصنا معًا وأنا أصرخ:

- لقد نجحت، لم يكن الأمر بذلك السوء، لأول مرة في حياتي أحكي لشخص ما الذي حدث لي، وعكس ما كنت أظن؛ لم أشعر قط بكرامتي تنهار وتتلاشى وكأنها دخان، ولا بجسدي يذوب ويتسرب نحو قعر الأرض.

بدأ يرقص معي كطفل صغير، وأنقذني نوفل، وكم تمنيتُ أن تكون أنت منقذي!

***

- ماذا تتمنَّين الآن؟

سألني بفضول ونحن نجلس في السَّيارة قُبالة البحر.

هل تعرف ماذا تمنَّيتُ قبل أن أُقابلك؟ تمنيتُ أحيانًا لو امتلكتُ آلة للزمن، تُعيدني إلى ذلك اليوم المشؤوم، تمنيتُ مرات لا تحصى أن أقف وألصق وجهي على النَّافذة وألا أفتح الباب كما طلبتْ مني أمِّي، تمنيتُ أحيانًا أخرى أن أُقابل ذلك الوحش، اشتهيتُ أن أقتله بأبشع الطُّرق، تخيلتُ نفسي مرات كثيرة وأنا أغرز سكينًا في قلبه وأشاهد عينيه حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، تمنيتُ في بعض المرات أن أفقد الذاكرة فقط وأنسى كلَّ شيء، وعندما قابلتكَ وأحببتكَ وتمنيتكَ أصبحتْ أكبر أمنياتي أن تحبني بعيوبي، أن تتقبلني بتشوهاتي، أن تعالجني وتنقذني وترمم شروخي بحبك، تمنيت أن تكفيك المزهرية المحطَّمة وألا

تبحث عن واحدة جديدة أفضل من المحطَّمة، تمنيتُ ألا أُحرم منك، ألا أضيع ويضيع قلبي وتضيع أحلامي التي بنيتها معك بسبب شيء لم أختره، بل فُرض علي..

طلبتُ الكثير، أليس كذلك؟ أردت منك أن تتقبلني وتتفهمني كما أنا دون أن أجعلك تعرف حقًّا من أنا، عشتُ معك قصتنا بأنانية، أعرفُ أنه كان من حقك أن تعرف كل شيء قبل أن أورطك معي، أخطأتُ كثيرًا يا نبيل، أخطأتُ وفهمت ذلك الآن، وأشعر أن كل ما يحدث لي هو عقاب على أخطائي، كنتُ أنانية، أليس كذلك؟

لكن ما مُورِس عليّ منذ طفولتي، ألم يكن أنانية في حقي؟ أليس من حقي الحب أيضًا؟ أليس من حقي الزواج والإنجاب كأي شخصٍ آخر؟

لماذا يجب عليَّ أن أؤدي ثمن أخطاء لم أرتكبها؟ لماذا عليَّ أن أعاقب على جريمة كنتُ ضحيتها؟

ما أتمناه الآن وأنا مع نوفل في سيارته، لا أعرفُ، أنا لن أتمناك لأنني فقدتك إلى الأبد، ولن أتمنى أن أنساكَ لأنك كنت أوَّل وأجمل حُبٍّ في حياتي، لم أعرف حقًّا ما الذي كان علي أن أتمناه.

أمام صمتي أضاف:

- تتمنين الآن لو أنه مكاني، هنا، معكِ، هو فقط!

- نوفل!

- ماذا يا ندى؟ أليس هذا ما تتمنينه حقًّا الآن؟

-لا، ما أتمناه الآن أن أستطيع رد ولو قليل مما فعلته من أجلي.

- لا أريدك أن تردي لي أيَّ شيء، ولا أن تشعري بأنَّكِ مدينة لي، أنا معكِ لأنني أحبُّكِ، وأحاول مساعدتكِ لأنني أحبكِ، وسأكون دائمًا معكِ وخلفكِ فقط لأنني أحبكِ وليس لأنني أنتظر منكِ أي شيء!

قلتُ له بحزن:

- أنا آسفة يا نوفل.

فرد وهو يشغل محرك سيَّارته:

- بما أنه تزوَّج يمكننا الآن إنهاء خِطبتنا الكاذبة هذه.

- هل مللت مني؟

قلتُ له مازحة لكنه التزم الصَّمت وقاد السَّيارة بهدوء نحو بيتي.

***

حين وقف أمام البيت قال بسخرية تغلبتْ عليها الكآبة:

- يُمكنكِ الآن أن تعيدي لي خاتمي الذي كلَّفني الكثير.

تأملتُ نظرته المنكسرة ويده التي ترتجف، قلتُ له بحزن:

- أنت متحمس للتخلص مني!

أضاف ببرود:

- هيا يا ندى، هيا، يجبُ أن أذهب.

- أنت غاضب مني.

قلتُ له ذلك وأنا أسحبُ الدبلة من إصبعي.

- لا لستُ غاضبًا منكِ، أتمنى لكِ السعادة.

- وأنا أتمنى لك السعادة يا نوفل، ومتأكدة أنك ستحصل عليها لأنك أسعدتني وأنقذتني، ولأنني سأدعو من أجلك كلَّ ليلة..

قاطعني:

- هيا اذهبي الآن، ولا تنسي أبدًا أنكِ لستِ مذنبة، ولست مشوهة، أنتِ امرأة رائعة يتمنَّاها أيُّ رجل.

- لماذا تشعرني وكأنكَ تودعني إلى الأبد؟!

- لا أودعك يا ندى، يمكنك الاتصال بي متى تشائين كالسابق، هيا، سأذهب الآن.

لكِنني شعرتُ أنه تخلى عني، وكان تخليه عني بشعًا جدًّا!

***

- ما بكِ يا طفلتي؟ لماذا أنتِ ذابلة؟

قالت أمي ذلك وهي تضع كوب الشَّاي عند رأسي وتسحب كرسي مكتبي لتجلس عليه.

- فقدتُ حبيبي قبل أسابيع، واليوم فقدتُ أيضًا صديقي!

- مَن؟ نوفل؟!

- نعم.

- هل تركتِه؟

- لم أتركه، هو طلب مني إنهاء الخِطبة وإعطاءه خاتمه.

- لماذا؟

- لا أعرفُ يا أمي، ربَّما لأننا اتفقنا من البداية أن كلَّ هذا تمثيل لكي أبعد «نبيل» عني، مع أنَّني لم أحتج إلى لعب هذا الدَّور، لأن «نبيل» ابتعد عني وحده.

وضعت يدها على شعري ومررت أصابعها على فروة رأسي ثم قالت:

- أشفقتُ عليه، يبدو أنه يحبكِ فعلًا.

- وأنا أحبُّ «نبيل» وفقدته، ألا تشفقين عليَّ؟

- طبعًا أشفق عليكِ، لماذا أنتِ حزينة إذن؟

– لا أعرف، أشعر بالوحدة، حين فقدتُ «نبيل» وجدتُ نوفل، وهو ساعدني لكي أجد نفسي، ثم تخلى عني فوجدتُ نفسي وحيدة الآن!

– لكِنني هنا، أنا دائمًا معك.

– أعرفُ.

قلت لها ذلك وأنا أغلق عينيَّ بألم.

***

فتحتُ عيني على عطرك، ولمستك، ونظراتك الدافئة، تأملتُك لعدَّة ثوانٍ وربَّما دقائق، أغمضتُ عينيَّ بتوتر ثمَّ فتحتهما مجددًا بحثًا عنك، فوجدتك، قلتَ لي بحنان وأنت تُداعبُ وجنتيَّ:

– ألن تستيقظي أيتها الكسول؟

وضعتُ يدي على يدك لكي أتأكد من أنك حقيقي.

قلتَ لي مازحًا:

– أنا حقيقي، لا تخافي لستُ شبحًا.

بدأ قلبي يدق بعنف ويداي ترتجفان، اكتشفتُ لحظتها أن يديَّ وقلبي وكل حواسي يرتجفون فقط بسببك ويهدؤون أيضًا فقط بسببك.

– ماذا تفعل هنا؟

أمسكتَ يدي ووضعتها مجددًا على قلبك ثم قلت لي:

– هذا أحضرني كالعادة.

– نبيل!

– أحبُّكِ، فقط أنتِ!

قلتُ لك بعتاب:

– أنت تركتني كلَّ هذا الوقت، و..

– كان يجبُ عليَّ أن أحل مشكلاتي بعيدًا عنكِ.

– وهل قمتَ بحلها؟

– تقريبًا.

– أنتَ تعرفني يا نبيل، أنا لن أبقى في علاقة مع رجل متزوج.

– وماذا عن رجل في مرحلة الطَّلاق؟

– ولا ذلك، أنا لستُ امرأة تتسبب في تدمير أي زواج حتى زواجك.

– لكنك لم تدمري أيَّ شيء، زواجي منها كان فقط لكي أساعدها ثم أطلقها بعد ذلك.

- ولستُ امرأة تبعد أبًا عن ابنه أو ابنته.

- لن تبعديني يا ندى عن أي شيء.

- ماذا تقصد؟!

- لا يوجد طفل.

- كيف ذلك؟

- أمي ومريم اتفقتا على خداعي، لكنَّني شككت بهما وأخذتها إلى طبيب آخر ليؤكد لي أنها كذبت عليَّ.

أمام صمتي ودهشتي أضفتَ:

- حتى لو كان هناك طفل ما، لم يكن سيبعدني عنكِ، ولم أكن سأتخلى عنكِ قط.

- نبيل..

قاطعتني:

- ألن أستطيع الحصول على قبلة النهاية السَّعيدة للقصة؟

- لا، ليس قبل أن تقرأ مذكراتي.

قلتَ بدهشة:

- أي مذكرات؟

قلتُ لك وأنا أجلس:

- مذكراتي الشخصية، أريدك أن تتعرف عليَّ من جديد، أن تعرف ندى أخرى لا تعرفها، اقرأها كلها، إذا أحببتها كما تحبني تعالَ لكي تحصل على قبلة النهاية السعيدة.